

عامان على الغربة

أحمد شامي



قد تكون الحياة ودية للجميع
و لكنها ليست كذلك للمغتربين

عامان على الغربة

(مقتبس عن قصص واقعية)

أحمد شامي

القاهرة، آذار - مارس 2019

Two years of alienation

By: Ahmed Shami

All Rights Reserved to the author ©

Published by: Author Ahmed shami

Proofreading: Walaa Alsayed Shammaa.

Voice performance: Mirna Mohamad, Ahmed Shami.

Distribution: Online

First Edition

Cairo, March. 2019

الطبعة الأولى،

القاهرة، آذار - مارس 2019.

عامان على الغربة

المؤلف: **أحمد شامي**.

الناشر: أحمد شامي.

التدقيق اللغوي: ولاء السيد شماع.

الأداء الصوتي: ميرنا محمد، أحمد شامي.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ©

لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونياً أو على ورق، كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة إلى المصدر.

أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها للمسؤولية القانونية.

إذا عثرت على أي مشكلة أو نسخة في غير الأماكن التي نشر فيها الكاتب نرجو اشعارنا، وذلك بالكتابة إلى المؤلف على

العنوان التالي: ahmadaboshami@gmail.com

رمية...

لم نختر أن نكون غرباء ولكن إخترنا العيش على ذكرى الأحباء. إنَّ أصعب ما قد تواجهه في هذه الحياة هو العيش بحياتين مختلفتين وخيارين أحلاهما مرّ ولكنك مجبر على الخيارات ما بين الحياة وما بين الواقع.

لست بكاتب ولا شاعر... ولكنّي أكتب لكلِّ مغتربٍ ولكل عاشقٍ أبعد ته الظروف. أحاول في هذا الكتاب أن أنقل صورته من وجهة نظرة قد تكون ثقيلة لبعض المغتربين، وأحاول جعل هذا الكتاب إطلاقة واعتراض على قضايا قد تكون مهملة لأنها قديمة وأنتقدتها عن طريق قصة عشق في زمن الحرب والاغتراب.

قد يلامس هذا الكتاب وهذه القصة البعض وقد تكون فيها بعض الأحداث التي عايشتها، ولكن ما أنا متأكد منه هو أنني أكتب وجع جيل عايش ذنب لم يكن ذنبه.

قد يكون في قلبي بعض الأماني أن تصل هذه الكلمات لصاحبها وأن يكون و صفي له متقن. ولكن تبقى النهاية هي الحكم.

لم نختر الاغتراب ولكنّا اخترنا ما نحن به في الاغتراب إما أن نكون ملهمين وإما أن نكون سراب.

الفهرس

5	إهداء
8	الفصل الأول: إقرار قرار
14	الفصل الثاني: إيداع عشق
19	الفصل الثالث: قضية رأي
29	الفصل الرابع: عناق للموت
35	الفصل الخامس: غربة في الوطن
43	الفصل السادس: بداية البصيرة
51	الفصل السابع: قدر
58	الفصل الثامن: تجرد
63	الفصل التاسع: نهاية البداية

الإهداء

أمدُّ إليكِ هذا العمل الذي طالما انتظرت أن يرى النور، أنتِ التي أعطيتني هذا الشغف بهذا الكتاب الذي أكتبه وحيداً بدموع القلب، وتفاصيل يعرفها أصحابها جيداً، وقد ساهمت ببعض التفاصيل التي جمّلت هذا العمل إن كان جميلاً... إليكِ أمدّ كتابي الأول وأنا أقبلُ يديكِ... إليكِ يا أماني أحمد عبد اللطيف قاسم، شكراً واعترافاً لكِ يا أمي وإلى كلّ من حفزني وساعدني في كتابة وتصحيح هذا العمل منهم: المدققة ولاء السيد شماع التي تحمّست جداً لتدقيقه، والإعلامية ميرنا محمد التي ساهمت في تسجيله بصوتها النقي وقلبها الرقيق والتي تحمّست لإصدار هذا العمل لكونه على حد قولها: "عمل ثقيل جداً من مضمون وغلاف"، والشكر للرائع الإعلامي الكبير جورج غرام الذي حفزني وأثراني بملاحظاته القيمة، وإلى أستاذي الأول عمار نذير العموري والإعلامي حيدر مصطفى والإعلامية القديرة وفاء آغا -أمي الثانية- الذين كانوا دائماً محفزين وداعمين لي أثناء كتابة هذه الكلمات البسيطة، وإلى أخويّ الدكتور أيمن عبد السلام البلتاجي والمهندس أحمد عبد السلام البلتاجي، وإهداء خاص لدكاترتي وأستاذتي الدكتور منير عباس والأستاذ بسام عرب الذين أعطوني من علمهم وشغفهم، وإلى أصدقائي وزملائي في كل أنحاء العالم سوريين ومصريين، وإلى منارتي الأولى وشعلتي في حياتي الوطن الأم سورية.. والشكر لكلّ من ساعد وتعاون ودعم وقال كلمة أو عبارة سلباً أو إيجاباً فـ "عامان على الغربة" كتاب يلخّص ما عاناه كلّ شخص فينا على طريقته وبكلّ فخرٍ بأيادٍ سورية مئة بالمئة.

القاهرة في ربيع 2019

أحمد شامي

عندما ترفض أن تسلّم أدواتك وترفع العشرة وتأخذ خطوة إلى الخلف، تكون قد حققت شرط اكتمال المعجزات بل تكون أنت المعجزة، أهدي تعبي للأنثى الشرقية المقيدة في مجتمعٍ راضٍ لقيم وهمية، كما أوصيك أن تخطي الخطوة الصحيحة التي تحرّرك وفي نفس الوقت الخطوة التي لا تؤذي الآخرين، كوني فاعلة لتكوني أنثى...

فالأنثى بدون أنوثتها القوية والفاعلة تكون عبارة عن نصف إنسان، لذلك تحرّري من قيودك تحت سقف الكرامة مهما كانت الظروف ولا تخرجي من الحياة بدون بصمة...

أحبكم...

طرطوس في ربيع 2019

ميرنا حسن محمد

ماذا يكتب المدقق في إهدائه الأول؟ ... سؤال يبعث الحيرة في نفسي ويربك الأفكار في عقلي. أمامي الآن ثمانية وعشرون حرفاً لأتلاعب بها كيفما أشاء وأرصفها علها تولد عبارات تلامس شغاف القلوب.

كيف لي أن أرسم ذاتي بيضعة فقرات في صفحة من كتاب؟

كيف لي أن أصور جهدي ودوافعي ومسيرتي في أسطر تخطها أنا ملي؟

نحن كبشر كنا -ومازلنا- دوماً بارعين في تضخيم المسائل الصغيرة واختزال المسائل العظيمة. فمن باب الفضيلة أتوجه بالحمد والثناء والشكر إلى خالقي وبارئي الذي وهبني العديد من الملكات التي لم أكن لأنال منها مقدار شعرة لولاه، وسخر لي فرصاً عديدة لاغتنامها، وتعهّدي بعنايته ورعايته ولطفه وعطفه، وأسبغ علي بنعمه وفضله رغم تقصيري البالغ تجاهه.

ومن باب الامتنان والعرفان بالجميل أتوجه بشكرٍ خالصٍ نقيٍّ إلى والدَيَّ اللذين منحاني أكثر مما أستحق بالرغم من كوني دائماً وفي كل مناسبة أتذمر من مطالبهما ومتابعتهما وأتكى عليهما ولكنهما لم يقابلاني إلا بالحب والعطف والتوجيه غير مباليين بأخطائي وعتراتي، فكانا دائماً وأبداً السند المتين في مواجهتي مصاعب الحياة وحتى أثناء لحظاتي الحرجة.

ومن باب المودة والمحبة والصدقة أتوجه بالشكر الجزيل إلى إخوتي اللذين أنقلتهم بكثرة منازعاتي وأفكاري الكثيفة المشتتة ونقاشاتي الفلسفية في الحياة. وأشكر ابني الذي لطالما كان الدافع المستمر لي لأقوم بأعمالٍ لم أؤمن أبداً أن لدي القدرة على القيام بها، وإنجازاتٍ لم يخطر ببالي أن أتحمّل مسؤوليتها أو أن تكون من نصيبي على الإطلاق علني أكون قدوة صالحة له في الحياة.

وأشكر نفسي التي أرهقتها حتى عافت الحياة والأرض والدنيا ومن عليها وتنقّست الصعداء، والتي لو ملكت أن تغادرني لما ترددت بتاتاً.

وأشكر جبالاً من الأشخاص اللذين كانوا سنداً لي في مراحل متقطعة من حياتي حيث دفعني كلُّ منهم خطوةً إلى الأمام حتى وصلت إلى ما أنا عليه الآن...

وأشكر شباب جيلٍ علي قيد الحياة ولكن لم تحالفهم الحياة بعد.

دمشق في ربيع 2019

ولاء السيد شماع

الفصل الأول

إقرار قرار

في الرابع عشر من الشهر الأول.. ماشياً في شوارع مدينة الياسمين، والنظرات على وجوه العابرين قد غادرها الفرح وتعلوها علامات الحزن واليتم والفقدان.. فقدان لوطن مازالوا داخله لا يرؤن منه إلا الظلم والحرب التي أعلنت ظلمتها في شوارع المدينة المزدهمة لتفقد رائحة الياسمين وتنتشر رائحة الدماء على أنغام موسيقى مرعبة تصف تفاصيل الحرب الدامية والقلوب القاسية بين الذين يدافعون عن أرضهم والذين يدافعون عن معتقداتهم وحريتهم.

يرن هاتف ملعون ليقول بلهجة سورية مؤصلة: "صار لازم تمشي ما عاد في مجال؟!".

ساد الصمت.. وكأن الناس في الشوارع قد صمتوا، وأصوات التفجيرات أوقفت صراخها، ووسائل النقل أوقفت محركاتها.. فتأخذ نفساً عميقاً محاولاً جمع ما تبقى من رائحة الياسمين وخائفاً من عدم شمها مرة أخرى.

دقائق تتساقط فيها صور الذكريات.. ما بين البناء الأزرق والجامعة والمؤسسة والشركة والتطوع والتدريب والأصدقاء، فتصرخ في قرارة نفسك: هل سأغير مبدئي في عدم الرحيل؟

خوفٌ شديدٌ وضرباتٌ قلبٍ متسارعة جعلت الأقدام تسرعُ بشكل كبير، مسرعاً للاستفسار عن موقف التجنيد لأربع سنوات مضت، محاولاً الحصول على الإعفاء لأنك الشاب الوحيد لعائلتك لتعود بالرغم من ذكر أية أسباب أو مبررات، لهفةٌ خوفٌ تجعلك تُخرج كل ما تملك في حقيبتك لتحصل على إجابة موظفٍ يشرب سجائره

الرخيصة مع كأسٍ من المنة.. لتحصل على ثلاث كلمات: "راجعنا بعد شهر".

تمّ اتخاذ القرار لم يعد في اليد حيلة، تحطمت جميع الطموحات والأحلام في تلك اللحظة، قرارٌ لا تملك له خيار وغير معروف النتيجة.. تائها أين ستنتلق؟

تحاول جمع ما تبقى من قواك متوجهاً إلى سفارة بلد والدتك لتقولها لأول مرة: "بدي فيزا لروح بلدي الثاني"، فينظر لك بخوفٍ واضح بسبب عينيك اللامعتين دمعاً والارتجاف الواضح في كلماتك، فيقول لك: "بدنا منك هالاثباتات" فتأخذ ورقة صغيرة لم تكن تتوقع يوماً أنك ستحملها وتحمّل ثقلها.

الطريق إلى دمشق كان واضحاً.. فالطريق ليس بطويل، إنه رائحة ياسمين، وضوء حنين، وليالٍ يبدو بها القمر حزين.

كيف سأعلن خروجي؟.. كيف سأتخلى عن أحلامي؟

لا تملك تلك الشجاعة التي تجعلك تواجه التخلي عن الوطن، فتقرّر الصمت والخروج بهدوء دون إثارة أي ضجيج، وتعلنها أمام صديقك الوحيد الذي وقف بجانبك وشاركك في حلمك (ع.ن.ع) هذا الاسم لا يمكن أن ينسى ولن ينسى فيه جميع الآلام والطموحات والأحلام.

إقرارٌ داخليٌّ بعدم معرفة أحد، وأن يكون هذا القرار الذي سيغير مسار حياتك هو قرارٌ خاص لا يمكن لأحد معرفته خوفاً من الكلمات المتلاحقة حول هذا القرار لتكمل عمالك وجهدك في صمت.

تبدأ بتغيير الاتجاهات لتصنع فرقا لدى الناس تواسي نفسك به، فتقدم كل ما لديك محاولاً كسب قلوب تواسي جرحك الخفي بكلمات بسيطة.

تجمع كل ما لديك عالماً بأنك لن تكمل طريقك وستغير اتجاه حياتك، فتختم ما كنت تفعله وتباشر بالتصفية الغير معلومة السبب لدى الجميع.

لتسلم أكثر من ثلاثة مشاريع لأصحاب فكرٍ قد يكون مختلفاً تماماً، خائفاً على ما جنيته فتفقد فكرك وعمالك بقلب مكسور وجرح مازال ينزف، ليكون به إقرارٌ قرارٍ بالرحيل ليحدث ما لم تتوقعه في كل حياتك وتكون الصدفة التي تبحث عنها لتغير محاور أساسية في داخلك.

وسط دهشةٍ كانت تعلق عيون الجميع تبدأ بدرب الانتهاء من أوساطٍ لطالما أحببتك وأحببتها، فتبدأ برسم خيوط شعاع الأمل في مكانٍ مغايرٍ لما تعودت عليه، وتبدأ شمعة حياتك الصغيرة بالانطفاء بعد انتهائها في لهيب الحرب الدامية التي لطالما عودت نفسك على قسوتها.

فما حدث في عام النكبة (٢٠١١م) كنت أول من تأذى به ووقعت في أيادٍ سوداء أذاقتك جميع أنواع العذاب، فأبدأ بالسؤال: كيف لي أن أنسى لهيب هذه القسوة والتعاش معهما بعد كل ما كان؟ ولكن ما زال القلب ينبض رغم قساوة الأحداث التي استمرت ستَّ ليالٍ مظلمة، لا تعرف من يحادثك ولم تعد تشعر بالوقت، حتى الأغلال التي في يديك لم تعد تشعر بقسوتها، لتخرج مدمراً كلياً وتعود إلى حياة لا تعرف إلا لغة الحرب، فتستمر وتجمع قواك المتبقية لتثمر وتحاول لملمة جراحك ليتحول قلبك إلى كتلة من القسوة وعدم الرحمة ومن الممكن ألا يعرف الحب بعد هذا العام المشؤوم.

هل هي مسيرة حياة لا يمكن إكمالها أم أنه طريقٌ مشؤوم كتب لك أن تكون بطله؟ تبدأ أسئلتك للتخلص من ذكرياتٍ مؤلمة لم تعد تريد العودة إليها لما تحمله من عتبه آلامٍ لا يمكن ترميمها، فتعود إلى وعيك وتنطلق لإكمال ما تبقى من مهامك الأخيرة وتكمل مواجهتك مع الآخرين لتحاول المساعدة، ولكنك لم تكن تعلم أن آخر مرة ستقدم فيها هذه المساعدة ستكون نقطة تحوّل حياتك تماماً.. وتقوم بقتل ما كان محبوساً في داخلك لسنين خائفاً عليه من قسوة وآلام الحرب بالرغم من إرهابك من آلام الفراق والخذلان والحرمان.

إنه الخميس.. اليوم العشرون من الشهر الثاني للسنة، تستعد لتنتقل مع أقرب شخص لديك لإطلاق ما كان مزعوماً العمل به، وتذهب واثقاً رافعاً جبهتك وتبدأ في كلامك وتوجيهاتك ونصائحك رامياً الجميع بنظرة الثقة التي تخفي خلفها وحشاً لم يعد يعرف معنى الخوف.

وفجأةً تصمت وتُصمُّ آذانك عن السمع، ويرتابك رعشة خوفٍ كبيرة
أيمكن أن يكون ما أراه صحيحاً!؟

إنها ياسمينٌ دمشقيٌّ يفوح منه عطرٌ ينثر نداءه على من حوله، فتتطلع
كبكرياءٍ وضحكك الوائقة تجعل الجميع سعداء.. لتكون كتمثالٍ
مقدس.

عندما كنت صغيرةً كانت تراودني أحلامٌ كثيرة عنها، وكنت أراها
محض خيال لا يمكن تركيبه في واقع قاتلٍ يذبح الأفكار ويقتل
القلوب، إنها هي بذات الشعر الأسود اللامع.. بذات العينين
الواسعتين، في أدناها أحمرٌ شفاهٍ مرصّع بحباتٍ من اللؤلؤ
المرصوص -حاول العودة إلى واقِعك، أوقف ضربات القلب
المتسارعة- هناك من ينادي: "عليك العودة.. عليك الاستيقاظ من هذا
الخوف.. من هذه اللحظة، اخرج عن صمتك فالجميع قد لاحظ أنك
تنظر لها بشدة، حاول إقناع نفسك بأن ما تراه محض وهم لا أكثر.

تستعيد جزءاً من وعيك وتستجمع ما بقي من عقلك لتتظر في عينين
لم تكن تراهما إلا في أحلامك الوردية لتقولها بصوتٍ عالٍ: "بعذر
أنا خلّصت"، ثم يقوم صديقك بإكمال ما بدأت أنت.

تجلس منزوياً مصدوماً إذا ما كنت في واقع أم حلم؟ وتحاول تجميع
أفكارك المبعثرة لتسألها بصوتٍ ملهوف: "ما اسمك؟"، ليكون هذا
الاسم هو ما بقي لك.

عليك المتابعة والاستمرار فهناك الكثير من المهام التي لم تنته بعد،
عليك الإنجاز بسرعة فقد تبقى يومان لإقلاع الطائرة، عليك توديع
كل ما بقي منك، وكل ما كان عليك، توديع الشوارع ورائحة الياسمين
وأصوات الأصدقاء ولمسات الكتب وأماكن الإبداع المكنون، عليك
أن تكون مستعداً للرحيل فلم يبقَ إلا القليل.

الفصل الثاني إيداع عشق

بقي من الوقت ليلتان.. ولم تكن يوماً تحسب لهذا اللقاء الذي جاء كعقابٍ على قرارٍ لم تكن أنت فيه إلا الطرف المنفذ، تنفذ قرار الحرب التي لم تكن يوماً إلا كعقابٍ لك، حالك كحال أي سوريٍ يعيش في أرض الكنانة، تتنفس هواء البارود وتذرف الدموع على من استشهد، وتدعو الله أن يكون من استشهد بعيداً عنك لكي لا يوجعك فراقه، ولكن هناك صلة كبيرة بينك وبينهم لأنكم تحملون نفس الدماء السورية.. نفس العادات المحلية، فتقطر عيناك دمعاً عليهم دون دراية.

ليلتان ويتوجب عليك الرحيل، لكن ذلك الشوق.. وذلك العشق المدفون يدفعك إلى جنونٍ عظيم، يجعلك تفكر في عدم الرحيل.. يجعلك تتراجع عن جميع صفقات البيع التي لم تؤت أي مردود، ولكن ذلك الجنون سيودي بك في مكان الطيف المجهول، وهل هناك طيفٌ مجهولٌ أكثر مما أنت مقدمٌ عليه؟

لديك آخر لقاءٍ في البناء الأزرق مع معاونٍ وزيرٍ ورؤساءٍ منظمات، فتقرر أن تثقل العيار أكثر من المعتاد وتكون المرّة الأخيرة لك.. بمثابة طلقة انتقامٍ لما أنت فيه الآن، نعم تقولها عبر الهواء مباشرة مع محاولة من الصديقة (ص.ا.ا) لتلطيف الأجواء المشحونة؛ فتصرخ قائلاً: "أين أنتم من شباب وطنٍ يقتل نفسه؟".

صرخاتٌ داخليةٌ وأوقاتٌ عصيبةٌ قررت أن تكون فيها وحيداً ليدفعك جنونك للبحث عن طرفٍ خيطٍ يصلك بتلك اللحظة المجنونة، وتشبع فيها غرور قلبك الذي عشق لأول مرة، فتبادر بالسؤال والأخذ بأطراف الحديث لتنتهي خجلاً بينك وبين الياسمين الدمشقي وتقولها بعد ساعتين متداركاً الوقت الذي لم يبق منه شيء، فتعترف بعشقك

المجنون، وهنا يسود الصمت وتقف حائراً: "هل أخطأت؟ هل أنت مجنون لتصرح بعشقي لن يكتمل سوى لليلة واحدة؟".

لينتهي صمتك وقلقك وقلة حيلتك بكلام مجنون: "نعم يا عزيزي.. أنا كذلك لم أكن للعشق يوماً، ولكن عينيك كانت لي منبراً عبر شاشات البناء الأزرق، ولم أتوقع لقياك يوماً!

إنه العشق الأزرق النقي الذي لم يكن مخططاً له، إنه صفاء قلوب لم تعرف الخذلان يوماً.. لتكون أمام قرارٍ آخر لم يكن لك فيه خيار.

هل الحياة اختيار أم إلزام؟ لا أجد الإجابة، فهناك الكثير من الظروف التي لا نملك لها قراراً ولا خياراً، فالحب مثلاً لا يمكن أن تتحكم به، فقد يأتي في أي زمان وأي مكان.. ولا تملك حتى اختيار الشخص الذي ستحبه، وعندما تحبّ تفعل كل شيء.

بقي ليلة واحدة تحت أنقاض الحرب.. تقرّر قضاءها مع عشقٍ مرّ عليه يومٌ واحدٌ فقط لكي تبقى معه متناسياً آثار الحرب والشقاء القادم، وتحاول إسعاد نفسك بقربه، تطول الأحاديث أكثر فأكثر وتتعلق أنت أكثر، تغنّيك شهوة العشق والجمال لتكون كالتائه ما بينك وبين وطنك.

إنها الآن الخامسة صباحاً عليك تحضيرات كثيرة، فلم يبقَ إلا ساعات قليلة على إقلاع الطائرة التي ستقلك إلى طريق المجهول.

يناديك صوت ياسمين دمشق ليقول لك: "بلا ما تسافر خليك هون.. الشام بدها ياك"، لتفهم حياء كلماتها وتنظر إلى شروق الشمس

الأحمر وكأن بها ألمٌ تكرّر ما قالته ياسمينتها، فيا تُرى أيهما أصدق في قوله: هل الياسمين أم دمشق الأم التي رعتك؟ أعدد ربطة عنقي وأحزم حقيبة سفري فأسمع صوت الرحيل يطرق عتبة بابي، إنها لحظة الفراق.. تودّع ما بقي منك وتنطلق لترى لآخر مرّة شوارع دمشق، فتنزف عيونك دماً لا دمعاً وتكتب في هاتفك الصغير رسالة إلى ياسمين دمشق مواسياً نفسك: "ألا إنّ اللقاء قريب".

تودّع قلبك وعشقتك وياسمينك في بنك دمشق سائلاً إياه حفظه وصونه، وفي طريقك إلى مطار دمشق توقّفك الحواجز فتُخرج بطاقتك.. فينظرون إليك باحترامٍ مبالغ فيه بسبب طبيعة عملك وتُسال: "لوين رايح أستاذ"، فتتحرّس الإجابة داخل قلبك ولا تقدر على نطقها، إنها أصعب من تلقي رصاصة في الصدر، فتجمل فتقول: "مؤتمر بمصر"، فتتلقى تلك الإجابة التي لم تتوقعها: "إي أستاذ شفتك مبارح وأنت عم تحكي عال تلفزيون.. الله محيي أصلك".

تدمع عيناك أكثر فتلك النجوم على كتفيه كنجوم العلم الدمشقي التي تنطق بالحب لسورية فتبتسم عند نطقه: "لا تطول الغيبة"، ثم تدخل باب المطار وأنت تنظر خلفك بخوف.. أيمنك إلا أعود يا مهجتي وقد وجدت فيك عشقي وياسميني؟ لا أعلم ما تخبئه الأيام لنا ولكن ما أعلمه جيداً أنني كحال كلّ سوريٍّ مهاجرٍ أشعر بالندم.

لا يمكن للقلوب ألا تلتقي ولكنّ هذا اللقاء كان صعباً جداً لا يمكن تحمله. تنتظر دخول الطائرة ممسكاً هاتفك الصغير تحدث من كانت مهجتك وكانت تخفّف عنك آثام ذنبك في السفر.. تتبادل الكلام في حياء لترسل لها صورة لآخر ما بقي منك في دمشق الهوى، فتجيب: "و شاء الهوى".

تغلقُ هاتفك وتضع قلبك في ذلك الكرسي الرمادي الرابع ووجهك يعتليه الشحوب، ناسياً ما قد يأتيك وباكياً على ما فاتك، نعم إنه الوداع يا سيدي. تدفع ما تبقى معك من عملةٍ سوريةٍ لذلك العامل الذي لمّح إلى الرشوة.. وبذلك تتخلص من آخر ليرةٍ سوريةٍ وتعطيه تلك الرشوة مبتسماً وفي قلبك حسرةٌ على الوداع.

تنطلق الطائرة لتشعر بقلبك يهبط من مكانه، فيبدو عليك القلق والخوف ثم تعود إلى وعيك على صوت المضيفة التي تسألك عن وضعك ثم تعطيك إرشادات السلامة، فتسألها عن إمكانية إيقاف الطائرة للعودة.. لتعذر وتنطلق مبتسمة.

ترى دمشق من الأعلى، نعم إنها ساحة الأمويين.. وذلك هو السيف الدمشقي تراه يبتعد رامياً إياك بنظرة العتب، وأنت تستودعه الله تعالى وتسأله حفظ ما بقي منك عنده، وتسأله إبقاء وديعتك بخير لتكون وديعة عشقٍ لسوريةٍ وياسمينتها.

ساعتان وتبدأ رحلةً الغربيةً الطويلة.. والعذابُ والشوقُ والفراقُ عن العشق، والعيشُ في نطاق الألم العصيب، ساعتان تفصلك عن عاداتٍ جديدةٍ وآلامٍ جديدة، ساعتان وتبدأ العيش في الندم والخذلان، ساعتان وتبدأ العيش في صراخ الروح لا الجسد، وتبدأ رحلة غربتك بتلك الجملة الراقية: {ادخلوا مصرَ إن شاء الله آمين}.

الفصل الثالث قضية رأي

القضية، ماذا تعني هذه الكلمة؟ وكيف هو عمقها الجغرافي في حياتنا؟ وما هو أثرها التاريخي على حياتنا؟ فكرت كثيراً في مفهوم القضية، لكنني لم أجد سوى أنها محضُ إرادةٍ تجعلك تحاول جاهداً لإثبات نظريةٍ تؤمن بها.. أو قد تكون ابتدعتها من محض ذاكرتك الواسعة أو مخيلتك العميقة أو خبرتك المتفاوتة، فأنت مثلاً تؤمن بقضية وطنٍ فتسعى جاهداً لإثبات هذه القضية، و تجعل ما خلافاً هو محض مؤامرة لإفشال نظريتك المحدودة من طرف واحد، قد يكون لك الحق الكامل بأن تؤمن بما تريد.. ولكن ليس لك الحق بأن تجعل الناس يؤمن بما تؤمن به غصبا، محاولاً جعل هذه النظرية عامة ومفعمة برأي الناس والأشرف، ولكن كيف لك ذلك وأنت مجرد إنسانٍ عاديٍّ لا تملك القوة حتى لإثبات حقك في الحب والوطن والحياة.

الحقيقية إنَّ قضيتك ليست قضية رأي عام، إنما هي قضيتك فقط، عليك أن تؤمن بذلك أولاً وأن تؤمن بأن هذه القضية مهما علا شأنها ستبقى قضيتك وحدك.

إنه اليوم الرابع والعشرون من الشهر الثاني، وها هي الطائرة تهبط مخففةً من سرعتها.. ترى ثلاثة جبالٍ شاهقةٍ تمسك ببعضها وتحمي صغارها، وها هو الحارس جالساً على عتبتها ينظر بكل الطرق التي تريد أن ترى فيها نظراته، إنه الوقت المحتوم.. تحطّ قدمك خارج الطائرة مستغرباً من هذا الطقس الحار في هذا الوقت من السنة، وتنصتُ بإمعانٍ إلى تلك اللكنة التي لم تكن غريبة عن آذانك أبداً، وتبدأ رحلة البحث عن حياةٍ جديدةٍ مليئةٍ بالهجر والفرق والحب الممنوع والغربة.

تدخل واثقاً مما أنت فيه، محاولاً تجاوز كل تلك الآلام البائسة والأحلام التي باتت بعيدة مسافات كبيرة، تنتظر دخول عالم تجهل ما يحمله لك، وتنطقها مرتبكاً: "إنها بلدي.. وأتيت إلى بلدي الثاني" ليبدأ برنامج التحقيقات والإجراءات الروتينية، تنتظر على عتبة القاعة البيضاء الكبيرة لأكثر من ساعتين.. محادثاً أخاك الذي لوَّعهُ الفراق البعيد وتلتقي به دون أن تعرف الشكل أو حتى الزمن إلى أن يصدر حكم الإفراج، وتدخل بقدمك اليمنى سجن الغربية التي طرقت بابك على حين غرّة، كحال أي مغترب قرّر الهجرة ولا تبدو عليه علامات الرضى.

و كان لقاء الاغتراب والصدمة لكل الأصدقاء بذهابك دون إعلامهم، والتخلي عما بقي من روحك المحطمة في صندوق الذكريات الأسود، لتبدأ كما تدعي حياةً خاليةً من أي ضغوطات، والانطلاق في آمال جديدةٍ ومشاريع جديدة، ولكن هذه المرة تحمل خبرة بسيطة تمكنك من تدارك كل أخطاء ماضيك النقي، و تبدأ رحلةً يشوبها كل ما يمكن أن يكون سبباً في فساد حياتك الرقيقة المفعمة بالأمل والسعي والنجاح والشغف.

الحب، تلك الكلمة التي لطالما سحرتنا بلعنتها وسعادتها وجنونها.. تلك الكلمة التي دمّرت حياة الكثيرين ولربما كانت سبباً في نجاح الكثيرين أيضاً، كنت أتساءل كثيراً في تلك الأعوام السابقة: كيف هو الحب؟ وما هو إحساسه؟ وما هو أسلوبه؟ وما هو كيانه؟ هل يكفيك النظر في تلك العينين الدافنتين لتكون قد حصلت عليه؟ أعتقد أنني لم أجد الإجابة بعد. ولكن ما لم أفهمه جيداً: لماذا يأتي هذا الحب بالكثير من العوائق التي تجعلنا نعاني كل ذلك الألم؟ وكيف سمح لنفسه بأن يتخطى كل الخطوط الحمر؟ فلم يعد يفرّق في عمر أو وقت أو وطن أو دين.

ما سرّ ذلك الارتباط الكبير بينه وبين الأخطاء التي لم تكن يوماً سبباً فيها، إنه سرٌّ غريبٌ جداً لا يمكن الإجابة عنه حتى الآن، فلقد خرق العادات التي تحكمننا دون علمنا، وخرق الدين الذي نؤمن به أياً كان هو، السؤال الحقيقي هنا: ما المشكلة في أن نكون أحياناً من أديانٍ مختلفة؟ ونختم ذلك الحب بزواج يحكمه القلب الذي لا يمكن أن يكون ظالماً أو خائناً؟

على ما يبدو أنني أرى للمرة الأولى مشكلة لا يوجد لها حلٌّ مزدوج، لأن الحب لم يكن يوماً يحكمننا.. إنما هي تلك العادات والتقاليد والأعراف الدينية التي وضعت لنا منذ آلاف السنين، ولم يكن لنا خيار أو رأي فيها على الإطلاق، بل نمشي عليها كالأنعام والغزلان التي تنتظر ذئابها.

جلّ ما يفعله الحب هو الإيقاع بنا في مصيدة لا مهرب منها ليوقعنا في خلاف كبير مع العقل والروح والعادات والتقاليد والأنظمة المعيشية، محاولين حلّ أغلالها عنّا ولكن من ذلك الذي سيحلّ تلك الأغلال أولاً؟ ومن ذلك الذي لا يستطيع التخلي عنها بل ويختار التمسك بها أكثر فأكثر؟ مدمراً ما بقي منه أو ما بقي من الطرف الآخر.

دقات قلبك السريعة تجعلك ترغب في الوصول باكراً إلى المنزل الذي ينتظرك في غربتك، وتمسك هاتفك وتحادث ياسمين دمشق لتخبرها بأن الشوق ازداد أكثر مما كنت تتوقعه وتسمعه في صوتها الحزين، وتستمر تلك الأحاديث لساعاتٍ عديدة تنشغل بها عن جميع من ينتظرك وينتظر لقياك.. بعد غيابٍ طال لأكثر من خمسة عشر

عاماً، لتشرح تفاصيل رحلتك وتجيّب عن أسئلة لا تدلّ إلا على الاهتمام الذي هو أساس أي علاقة، فتسمع كلمات تدلّ على شوق دفينٍ خجلٍ يتوارى عن الإفصاح، لتراها فجأةً تدخل عليك من باب الغرفة الصغيرة.. وتجلس بجوارك وتنظر في عينيك المصدومتين بقدمها، وتجيّبك عن أسئلتك: "إنه القدر الذي جمعني بك"، وتأخذك في حضنها الدافئ وتمسح عنك تلك الدموع المليئة بالحسرة والندم، ثم يأخذك النوم عميقاً في طيات ذلك الحنان.

تستيقظ صباحاً على جرس هاتفك فتجيّب مسرعاً.. وتسمع صوت الياسمين ينادي عليك صباحاً برائحته العطرة، وتدرّك صدمة أن ذلك الحزن كان مجرد حلم لم ترغب في الاستيقاظ منه أبداً، فتتنظر خلفك وتجد آثار دموعك على تلك الوسادة الناعمة التي لم تكن مريحة لك لما تحمله من آثار الغربة.

يأخذك الكلام وتطول الأحاديث مرة أخرى، ويشعّ نورٌ صغيرٌ قادمٌ إليك بضحكته البريئة، ليجلس بجانبك ويشاركك ما بقي من حديثك على وسادتك، وتأخذه في حضنك وتنطق فيه ما بقي من حنان الوطن ولذة الشوق منذ ولادته بعيداً عنك.

يأخذك الألم من جديد.. وينفث فيك سمّاً موجعاً مليئاً بالذكريات لتتأكد بأن كل ما بقي محض سراب تحاول جاهداً عدم تذكره، ولكننا كبشر نعيش بذاكرة لا يمكن أن ننسى، فتعيش حالماً بما بقي من سرابك القديم في بلد الأحلام الكبيرة والنجاحات العظيمة.. دمشق.

تجلس في تلك الزاوية المنعزلة عن باقي العالم محاولاً استعادة ما بقي من ذلك الشغف للحياة، راسماً القليل من الخطط، مواسياً نفسك على الخطط القديمة التي لم تستطع تنفيذها، إن كتب الإدارة الكثيرة

لم تكن ذا فائدة بما أنت فيه الآن، وهنا يطرق سؤالٌ عتبةً بابك: إذا كانت هذه الكتب لم تفدك الآن، فلم كنت تقرأها أصلاً؟

لم يحبون عيوننا و عيون أبنائنا بالكتب التي لا تمت للواقع بصلة؟

لا أدري تماماً ما المغزى من أن نقرأ ونحفظ ونحاول جاهدين السير على مناهج مدارس قديمة كانت في ظروف لا تناسب ولا تشابه ظروفنا الحالية، أعتقد أن ما يثبت نظريتي الخاصة تلك هو إغلاق عدد كبير من الشركات بعد وقت قصير بسبب سوء الإدارة.

لن أواكب المسير في ذلك القطيع، سأصنع مدرستي الخاصة التي تناسبني.. ناسياً ومتجاهلاً ذلك النظام التعليمي الذي بات قديماً ولا يستطيع أن يلفظ غبار الزمن عنه، سأواكب حياتي على مدرستي الخاصة.

تبدأ بتمزيق تلك الخطط التي لم تعد تناسب احتياجاتك ولا رغباتك الداخلية، وتبدأ بصناعة قرارٍ خاص بك كما تفعل دوماً.

إنه اليوم الثاني منذ وصولك إلى أرض الفراعنة، تبدأ العمل والانطلاق بأفكارك خارج حدودك لتعود أذراك كثيراً، وتبدأ بتكوين بعض الصداقات وتقوي ما تملك من معارف سابقة، وتبدأ بالالتقاء ببعض الصداقات القديمة محاولاً تجاهل اختلاف الثقافة واللكنة، والاندماج بشكلٍ جزئيٍّ محاولاً النسيان.. ولكن تلك الأسئلة التي تبدو مألوفاً لدى الكثيرين من المصريين عمّا يدور في أرض الكنانة وكيف أصبح الياسمين الأبيض يقطر ندىً أحمر، تلك الأسئلة تعيدك

باستمرار إلى صوت القذائف الصارخة، وآلام الفراق، ورائحة الموت، فتجيب مبتسماً: "أست سياسياً"، ولكن في قرارة نفسك تعلم جيداً أن هذا ليس له أي علاقة بالسياسة.

الحرب تبدوها السياسة ويعاني منها الأشخاص العاديون، وتبقى آثارها ملازمةً لنا في حياتنا، قد لا نستطيع النظر إليها ولكنها لا تفارقنا، إن أي سوري في الغربية يكره الحديث عنها ولا يحب أن يُسألَ عنها؛ لأنها تجعله يتذكر أمجاد منزله المهوم ورائحة الأشخاص المفقودة وموسيقى الموت.

حالنا جميعاً ليس ببعيدٍ عن تلك المآسي رغم اختلاف معتقداتنا، ولكننا نعلم جيداً أننا نتشارك نفس الألم، ونفس الجرح، ونفس الضغط.

هناك الكثير من الأسئلة التي لم تخطر لك سابقاً ولا تعلم كيف ستجيب عنها، قد تكون هذه الأسئلة بسيطةً ولكن لا تعلم ما الذي يجعلك تائهاً عنها، فأنت حقاً لا تعلم هل ستعود يوماً أم لا؟ ولا تعلم هل ستنتهي الحرب أم لا؟ تيقّنت جيداً أنك بدأت حرباً ولكن دون رائحة البارود، قد بدأت حرباً مختلفة أدخلتك فيها تلك الأسئلة من شعبٍ لا يدري ما يفعل.. أو يفعلون ذلك من شدة المحبة، لا تدري جيداً ما هي نواياهم ولكن ما تعلمه جيداً أنهم أدخلونا جميعاً في حربٍ نفسية.

رحلتك في البحث مازالت قائمة، فلقد اعتدنا كسوريين على العمل، فتدخل في تجارب كثيرة وتفشل ثم تعود أدراجك خالي الوفاض متعباً من لوعة الشوق والغربة والإجابات التي تشعرك بأنك غريبٌ فعلاً.. ولم يكن يوماً هذا مكانك بعكس ما كان يقال لك.

تستمرّ رحلة البحث ومعها تبدأ في تكوين علاقاتك، فإن أساس النجاح في أي مكان هو العلاقات والمعارف ليمضي من الوقت شهران وأنت ما زلت تبحث.

لم تكن لتنسى يوماً ذلك البناء المتواجد في القاهرة، والذي استمررت في التردد عليه لأكثر من أسبوع تجري فيه مقابلات عمل لثُخنتم أخيراً بجملة لا يمكن نسيانها: "أنت مناسبٌ للعمل، وقد تكون أعلى من المطلوب ولكن نحتاج مصريين للعمل ولا نريد سوريين"، قالها وهو يبتسم ولكنه لا يعلم وقع هذه الكلمات عليك، وكم جعلتك تشعر بالغبطة والقهر.. لتبدأ بها رحلتك مع قهرٍ جديدٍ إنه قهر الرجال، جعلك ترمي سنيماً من الخبرة جانباً وتبدأ بالبحث من جديد عن أي عمل آخر، محاولاً استعادة قوتك ولملمة ما بقي من نفسك والاندماج بأي شكلٍ كان، ومحاولاً نسيان ما كان.

يومك في الغربية ينقسم إلى قسمين: قسم تعيش فيه باندماج مع المجتمع حولك، وقسم تعيش فيه وحيداً مع تلك الذكريات.

لا أعلم إن كان هناك مساوئ أم محاسن للغربة، ولكن ما أعلمه جيداً أنها تجعلك تخسر كل شيء، فلقد بدأ الناس في وطنك بنسيانك، ومهاجمة ما تقوله لمجرد أنك في الخارج، وفي الغربية تبدأ الناس بمهاجمتك لمجرد شعورهم بأنك قادم لسرقة رزقهم، وما لم تستطع الحرب أخذه قد أخذته الغربية.. فقد أخذت أحلامنا، ووطننا، وآمالنا، وحياتنا، أخذت تلك الشهرة الخداعة وتلك المشاريع التي باتت تحت منصاتٍ مختلفة وأخذت حياةً بأكملها كنت تتغذى بها، ولكن دون

خوف.. مازلت قوياً فياسمين دمشق مازالت تهوّن عليّ ألم الغربة
ووجع النفوس الخداعة التي ظهرت فجأة.

الأيام بدأت تشبه بعضها البعض إلى حدٍ كبيرٍ، فتبدوها بصوت
الياسمين وتحاول جاهداً البحث في أي مكان عن أي شيء.. لتعود
متعباً وتختتمه بأحاديثٍ طويلةٍ تقول فيها كل ما يدور في نفسك دون
خوف، فأنت تجد فيها كل القوة والصبر، وتجد فيها ما بقي منك.

كل ما فيك ما زال ينبض بالحياة.. فما زلت تحتفظ ببعض من أجزاءك
في دمشق وياسمين دمشق، ولكن الإحساس الذي تشعر به مازال
يقلقك، فلأول مرةٍ تشعر بالخوف، فتلك الأحاديث جعلتك تعلم أنك
وياسمين دمشق مختلفان في شيء واحد فقط، شيء واحد يحكم
أقداركم.. إنه الشيء الذي يقول لك: إن الحكاية لم تنته، وإن الألم
الحقيقي لم يبدأ بعد، أمر واحد يجعلك تتخلى عن جميع مبادئك وكل
ما تؤمن به، ولكن هل تفعل كما تفعل ياسمين دمشق؟ تلك الإجابات
لا تجعلك تعلم إن كان كذلك أو لا، ولكن تجعلك تائهاً بما أنت فيه،
وخائفاً ممّا سيأتي، فتسأل نفسك: هل سيكون مصيرك كمصير بلدك؟
فلقد تشاركتما معاً نفس الذريعة، ولكن تعود بالنظر إلى تجارب سابقه
لترى أنها قد نجحت مع الكثيرين، فاختلف الطائفة الدينية واختلف
الأديان لم يكن مشكلة بالنسبة لهم كما هو الحال عندك.

ذلك الحب يجعلك تكمل حياتك وترمي كل تلك العوائق جانباً،
وتستمر في حبك الذي انتظرتة كثيراً، فتكمل دون أن تنظر لما
سيحصل في الغد، فكل ما تريده الآن هو ذلك الحبيب في ثنايا حياتك
ليعيد ترتيبها لك من جديد.

اختلاف الآراء لم يكن سبباً لأي مشكلة.. بل كان سبباً للتقارب وفتح أطراف أحاديث كثيرة، ولكن اختلاف الأديان كان عائقاً كبيراً لياسمين دمشق، وتساءل نفسك: ما هو ذنبها؟ وما هو ذنبك؟ لم تجد أي إجابة إلا أنّ بحر الهوى قد رمى بكما من على علوٍ كبيرٍ ولا تعلم متى ستصل إلى الأرض وما الذي ينتظرك.

ما هو السرّ الذي يجعلنا على قيد الحياة؟ أعلم تماماً إنها الروح، ولكن ما الذي يجعل هذه الروح تستمر في مدنا بالطاقة؟ أعتقد إنه الأمل.. الأمل في النجاح والأمل في الحب والأمل في الأهداف، وما أنا متأكد منه أنه لا يوجد أمل دون ألم، أيمن أن يكون هذا السرّ هو الألم؟ لا يوجد إجابة منطقية على ذلك السؤال، فالألم هو ما يجعلنا نتعثر، ولكن في كثير من الأحيان قد يكون الألم هو سبب إصرارنا على العيش، فنحن نتغذى منه كما يتغذى منا.. فقليل من الألم قد ينفك في بعض الأحيان.

الفضل الرابع عناق للموت^{٢٩}

مع التقدم في العمر ستدرك أنك غضبت وخاصمت العديد من الأشخاص لأجل أمور لا تستحق، وستزداد البصيرة ويكثر التغافل ويكثر معه الإحساس بالغرابة، فالغرابة لم تكن يوماً كما يعتقد الجميع.. إنها منارة للخير وإنها فترة وستنتهي، فطريق الغرابة ليس له رجوع ولا باب للعودة المرجوة، ولا منارة للخير، ففي الغرابة الكثير من الألم وعدم الغفران.

قد تكون مواقع التواصل الاجتماعي مثلاً واضحاً لكل ذلك، وقد نكون أوجدنا نوعاً جديداً من الغرابة غير تلك التي كانت معروفة، إن من أهم أهداف مواقع التواصل الاجتماعي هي التقارب الثقافي ومحو الإحساس بالغرابة والبعد، وقد تعتبر هذه ميزة قيّمة، ولكن في الحقيقة إنها مثلاً واضح للغرابة، سابقاً كنت تعيش على أمل اللقاء بالأحباب.. واليوم بتّ تعرف رأيهم فتعلم أنك لم تعد موجوداً في حياتهم، فعودتك ستكون بمثابة غربة داخلية فُرضت عليك لتكون غائباً متغيباً مغترباً في أرضك وبين أهلك، فالتعود أصعب ما يمكن لك النظر فيه في الغرابة، فجميع من كان حولك اعتاد على غيابك البعيد، واكتسابك لثقافات جديدة، واختلاف ثقافتهم يزيد من الفجوة فترجو العودة إلى الغرابة التي لم ولن تخرج منها أبداً.

ما زال الحنين والشوق لتلك الأشجار وتلك الضحكات يتوه في خاطرك كلّ يوم، ويرسم في وجهك ابتسامة ألم، فتندفع لتعلم ما هي آخر أخبار الحرب في بلدك المهجور فتعلم أن الحال كما كان دائماً منذ سنوات.. أيام عصيبة تخفيها بعض القنوات وتعلنها بعض منها، وآلام التفجيرات تجعلك تموت خوفاً وقلقاً.. فتبدأ بالكتابة لتحاول تغيير ما تستطيع كما كنت دائماً، وتجد بعض الردود التي لم تكن يوماً في حسابك، فكيف لك أن تنقد وتنتقد وأنت لست في بلدك حتى، وكأنما قد سحبت منك جنسيتك، وتمّ إلغاء مفهوم المواطنة لك، آخذين

حقوقك متناسين أنك ابن هنانو وقاسيون والأيوبي، وأنك كسوريّ
تعتبر ممثلاً لأرضك ولبلدك ولهم في أي مكان كنت، ألا يكون لديك
الحق في الكلام يوّلّد شعوراً يزيد من الألم وجروحك.. فتزداد
غربتك غربة وتزداد الألمك ألماً.

فإنك لم تنسَ يوماً أصوات القذائف الملقاة ولا أصوات الصواريخ
التي لا تعرف مسارها، ولم يغب يوماً شعور الأغلال في يديك فيأتيك
ذلك الخبر الأسود المليء بالدم، لا تعلم كيف تبدأ ولا كيف تسأل ولا
كيف تتواصل مع من بقي منك هناك، تعتريك مشاعر الخوف والألم
والخذلان.. فيصرخ داخلك مقطعاً ما بقي من سرايين قلبك، خوفك
عليهم واهتمامك بهم لم يكن عبثاً تجاه من اهتمّ بك كثيراً وهل جزاء
الاهتمام إلا الاهتمام؟

الإنترنت مقطوع والاتصالات معدومة ولا يوجد سوى صور
الأشلاء المنشورة على شاشات التلفاز، فتذهب تلقائياً وتنقل عينيك
بين تلك الأشلاء محاولاً تمييز أي أحد منهم فيزداد خوفك وقلقك، تمرّ
الدقائق والساعات كأنها سنين وقرون، ويبدأ عقلك يصاب بالجنون،
ثم تنقطع سرايين الألم مؤقتاً على صوت رسالةٍ كُتِب فيها كلمتان:
"نحن بخير".

قد تكون هاتان الكلمتان تشعان بهجة ولكن التفجيرات المتفرقة تقلقك
على الياسمين، فيمرّ يوم دون خبر.. ولا حتى فسحة أمل، تسأل
وتحاول الوصول لأي خبر دون جدوى، لتبدأ الدخول في صدمةٍ من
نوع جديد وألم غريب، أيمن للحرب أن تبعذك نهائياً بخبرٍ فاجع؟
تواظب على المراسلة ومحاولة الاتصال حتى يرنّ ذلك الهاتف
وتسمع ذلك الصوت الواهن الخائف.. فيرتاح قلبك ويزول قلقك لتتلج
قلبك بصوت الياسمين وتعود مرتاحاً غائباً بمسافة الغربة فقط من

غير الموت، تحاول الوصول إلى من بقي من أصدقائك لتعلم أنهم بخير وأن كل شيء قد مرّ بسلام.

ولكن هل مرّ بسلامٍ فعلاً؟ لا أعتقد ذلك، فذلك الشعور ما زال كل يوم يأتيك على حين غفلة ومن غير إنذار مسبق.. لتعيش في ذلك القلق والخوف المتلازم فتعلم أنك قد وجدت لوناً أحمر للغربة في زمن الحرب.

تزداد الآلام يوماً بعد يوم تحت رعايةٍ كبيرةٍ من الغربة بمشاركة غير مباركة من الحرب، فتعيش في ظلمٍ داخلي لا تعلم عنه إلا أنك بدأت تفقد مشاعرك التي قتلت بشكل كامل، قلبك ما زال يشعر بالقسوة حتى تحجّر تائهاً في ثنايا الحرب الكاملة.

تبدأ بتكوين فكرة، أملٌ صغيرٌ ما زال يعيش في داخلك من حبٍ لم تعهده يوماً.. من شهوة اللقاء التي تقتلك كل يوم، وذكرياتك عن ذلك اليوم تدور ضمن أحاديثك المطولة مع الياسمين الدمشقي الذي لم يكن يوماً ضمن مخططات حياتك.. ولكن اختلاف الأديان الذي لم يكن عائقاً لك بدأ يكون عائقاً كبيراً لديك، وبدأ يقتلك قبل أن تقتله، وتبدأ المقارنة ما بينك وبين الأهل لتأخذ قرارك بأن الياسمين لا بدّ له من إعلامهم، وخاصةً أنهم متفهمون.. ولكنّ الردّ كان سلبياً، تلك السلبية تجعلك في دوامةٍ كبيرةٍ وقلقٍ دائمٍ وأسئلةٍ لم تكن تخطر لك يوماً، كيف سينتهي هذا العشق الممنوع وإلى أي مدى سيستمر؟

تعلم في قرارة نفسك أنه قد حَسَم أمره، و لكنك لا تجرؤ على القول، وتحاول إقناع نفسك بأنك لن تفقد هذا الأمل الجميل الذي يحمل رائحة النقاء والياسمين الفوّاح.

أنت تعلم جيداً أنه يغار عليك حتى من نفسه، ففي كل يوم يعلمك أن إحساس الغيرة المبطن هو أقوى شعور للحب غير المعلن للناس، وتزداد أحاديثك معه ويمر الوقت سريعاً، وتعودان لكيونة العشق الممنوع من الدين.

إنها السادسة صباحاً من اليوم السادس من الشهر السادس.. آخر مكالمة انتهت بنومك على صوت الياسمين، فتذهب إلى عمالك ثم تعود بعد ساعاتٍ لتجد رسالةً كُتِبَتْ بيديه الناعمتين ولتكون آخر كلماتٍ سَطِرَتْ: "لا أستطيع أن أكون أنانية، لا أستطيع أن أجعلك تتعلق بي أكثر وأنا لست لك، انتهى.. أتمنى لك حياةً جميلةً كروحك".

إنه الموت المتقن تماماً مع رقم (6)، فتلك المكالمة كانت في السادسة صباحاً والرسالة كانت في السادسة مساءً من اليوم السادس من الشهر السادس، كما أن سفرك كان في السادسة صباحاً، ما سرّ ذلك الرقم العجيب الذي توقف عنده الزمن؟ ومن أين له كلّ تلك القوة الجبارة على إخفاء كل شيء جميل.. كل ما له علاقة بالحياة؟

كيف يجعل اختفاء كل أمل تملكه دون مبرر!! حتى دون كلمةٍ واحدةٍ أو مواجهةٍ؟ ثم يقتلك ببطءٍ شديد، وتعلم أن هناك لوناً غريباً جداً للألم، ذلك اللون الذي لا يصدر أي صوت ولكنه يقطع جميع شرايينك، فتتعلم أن من أقدار الحياة أن تعلم أن هناك أربعة أشياء في حياتك لا يجب كسرها: (الثقة، الوعد، الحب، القلب)، ليس لأنها أساسيات العيش بل لأنها حين تنكسر لا تصدر صوتاً ولكنها تُحدث الكثير من الألم.

توقف الوقت تماماً عند ياسمين دمشق كما توقف الوقت عند دمشق وعند أحلامها، فلم تعد غربتك بقصد العمل والتطور وإنما تحوّلت إلى هجرة.. فلم يبقَ لك شيء تعود من أجله.. فتحاول جاهداً الوصول إلى ياسمين دمشق لإنقاذ ما بقي منك ولكن تعود محاولتك بلا رد، فتبدأ بمتابعة أخباره عن بعد، لتعلم أن هناك نوعاً من الحب غير معلن، وتحوّل موتك وألمك إلى ذكرى تعيش فيها ما بقي من عمرك وتظلّ حائراً في ذكراها، فتعلن ولادة عنقاء عانقت الموت.

الفصل الخامس غربة في الوطن

تعود إلى حياتك من جديد، وتقرّر البدء دون عنوان ودون أي هدفٍ واضحٍ في ثنايا الليل مع الغربة الدامية في قلبك، تختار الليل لأنه الوحيدُ القادرُ على أن يسمع صرخاتك الداخلية، ويستعدّ لك دائماً ليستمع إلى ذكرياتك الأليمة.

الليل والماضي تربطهما علاقةٌ قويّةٌ وجمّة، لكن لا تعلم حقيقةً ما سرُّ هذا الترابط والتناغم، فهو مثلاً الملجأ الوحيد للعشاق حيث يجدون فيه الملاذ الوحيد الذي يفرغون فيه عما يجول في خواطرهم، وكذلك هو حال المغتربين عموماً، فيكون يومك إما عبارةً عن تجوالٍ ليس له أي هدف أو سهراً دامياً في ثنايا الليل الغابر الموحش تحت رعاية الغربة.

كل ما يجول في خاطرك هو قوّة تلك الكلمات وسحرها البديع على إنشاء علاقةٍ عذراءٍ لا يشوبها أيّ رغباتٍ، ولا يملؤها إلا صرخات حبٍ دامعة وقلوبٍ عاشقة.. عشقت بفنّ الكلمة وفنّ الحديث والصوت البديع، فتظّل أسيراً لتلك الكلمات ويبقى الأمل أن تأتي لحظةً وتجمع بينكما في يومٍ من الأيام.

تعود بك الذاكرة قليلاً فتتذكّر أياماً قد مضت في ثنايا مكتبك، ويسوقك الحنين بلحظةٍ عارمةٍ لتلك الأماكن والأشخاص الذين يقطنون في زوايا شوارعها على رغم ما بها من ألمٍ ومعاناة، فتتذكّر أنك من البداية قد كُتبت عليك الغربة كما كُتبت الحرب على الوطن، وإنك تعلم أن أقسى وأصعب ألوان الغربة هي الغربة داخل الوطن.

في ذلك العام المشؤوم عام النكبة -أو ما يُدعى بداية الأزمة في سورية- كنت مجردَ شخصٍ عادي لا يهتمك شيء في حياتك سوى ما

كان يُمتعك في هذه الدنيا ولا تأبه لما يدور حولك.. وكأنك تعيش في كوكبٍ آخر بعيداً عن كوكبِ الإثارة الذي حولك، فقد كنت تعيش في عالمِ الحكايات والقصص، وكنت تُطلق العنان لخيالك الجم الواسع بعيداً عن كلّ أسبابِ التعاسة التي تحيط بك، وبعيداً عن تلك الروايات التي تجوبُ الشارع السوري، فكان يومك كأَي يومٍ عادي قبل ذلك العام، ولكن بعض التغيرات الطفيفة التي أُجبرتَ عليها عنوةً، فكانت تلك الأصوات المتألّمة وتلك القنابل صوتها أعلى من صوت الموسيقى وصوت الحب وصوت الخيال الذي في داخلك، تعيشها بسيطاً جداً بكل تفاصيلها الجميلة والقيحة.. فيأتي ذلك الوقت الذي لم يكن لك من البداية ويتم أخذك عنوةً من باب منزلك بأيدي أطياف سوداء الشكل والروح وأناسٍ لم تعرف يوماً معنى الحب.

ينتابُ قلبك النقي خوفاً شديداً.. وأنت تشعر بفوهة ذلك السلاح مزروعاً في تربة خاصرتك كالسيف.. تحمله يدُ خاننةٍ مرتعشة قلقة، وهنا كان يجب أن تفقدَ بصرك بذلك الوشاح الداكن الذي كنت ترتديه، معلناً معه قتل كل ما كان بك من مشاعر وأحاسيس جميلة، وتخدش ما بك من إنسانيةٍ بريئةٍ، وتحوّل في تلك اللحظة إلى كائنٍ جديدٍ ومخلوقٍ لم تعهده من قبل.

الشعورُ بأنك أعمى صعبٌ قليلاً، فكلّ ما تشعر به في تلك اللحظة هو ملاذك الوحيد لمعرفة ما يدور من حولك، فكل ما لديك من معلوماتٍ تجعلك توقنُ أنّك بداخل صندوق السيارة -أو العربية كما يطلق عليها- من خلال دخولك العنيف لها، وحركتها تجعلك تعلم أنّك تسير لمسافاتٍ بعيدةٍ عن طريق أصوات السيارات الأخرى، ولكن في الحقيقة إنّ أكثر ما يربع في الأمر هو عدم معرفتك بما هو قادم عليك وكيف سيكون؟ وما الذي ستعلمه و تتعلّمه من هذه التجربة

وهذه الحادثة إن خرجت منها؟ تلك التجربة التي لم ترَ فيها بصيصَ النور حتى الآن.

ومع توالي الصفعات واللكمات والضربات يُقتل جزءٌ منك، ومع كلِّ كلمة تطرُقُ مسامعك يجول في خاطرك شعورٌ أسودٌ جديداً لم تعهده من قبل.. ولم تفكّر به في حياتك، و لم تسمح له بأن يدخل حياتك أصلاً، كما هي رغبتك في الموت في هذه اللحظة.. شعورٌ عميقٌ يتنامى مع ضرباتٍ لم تعد تشعر بها من كثرتها ومن اعتيادك عليها، واتهاماتٍ لم تكن لتوجّه إليك يوماً.

تبدأ لعبة الانتظار مع الوقت، ولكن ما هو الوقت؟ وكيف هو شكله؟ هل هو مجردُ أرقامٍ وضعناها لأنفسنا كي نرتّب عليها حياتنا فقط، ونضع بعضاً من القيود فوق تلك القيود المجتمعية التي لم يكن لنا خيار فيها!

عدم معرفتك بالوقت وبالزمن يجعلك تفكّر ملياً.. كيف ستعلم كم مرّة عليك من الوقت حقاً؟ فالوقت كان بطيئاً لدرجة أنك تشعر أنه قد توقّف، وهو في الحقيقة توقف عند تلك اللحظة التي تغيّر فيها مجرى حياتك.

تفكّر كثيراً كم مرّة عليك من الزمن وأنت تتعذب وتصرخ بكرامة، كرامتك التي لم يستطع أحد منهم كسرها أو حتى خدشها، فأنت لم تنكسر لهم أبداً، وفضّلت محاربتهم بصمتك وكتمان صرخاتك وأوجاعك.. مما يجعلهم يسيؤون لك أكثر ويزدادون في طغيانهم الأعمى، فيكون ميعاد وجبتك المتعفنة هي ساعتك وبوصلتك للوقت

التي تعدّ بها الأيام لا الساعات، وتعلم من خلالها مواعيد التعذيب المفروضة فتصنع لنفسك بوصلة حياةٍ لا تعلم متى ستنتهي.

يداك المكبلتان بطريقةٍ بدائيةٍ، وعيناك المعصوبتان بطريقةٍ غير احترافية.. تجعلك تعلم أنك لا تتعامل مع جهة معلومة ومحددة وإنما هي جهة مجهولة تماماً وغير منتظمة وغير منضبطة، وكل ما يشغل تفكيرك ويثير حيرتك هو صوت ذلك الرجل.. فصوته ليس غريباً عنك!

ليست تلك المرة الأولى التي تسمع فيها هذا الصوت.. فذلك الصوت قد اعتدت على سماع ضحكاته ولكن هذه المرة تسمعه بطريقةٍ جديدةٍ مليئةٍ بالحق والكراهية غير مبررة وغير مفهومة.

تبدأ الأسئلة تكثر و تدور في عقلك: ما الذي زرعت له لتحصّد كلّ هذا الكره والحق؟ فتأتيك تلك الإجابة الغريبة من دون أن تكلف نفسك عناء السؤال: "لماذا لديكم أموال ونحن لا؟".

بدأت تفهم وتشعر بكلّ ما يدور من حولك بشكلٍ جيّد، وبدأت الأمور تتوضّح أمامك، وأصبحت تعلم تماماً أن كل ما يدور ويحصل في هذا المكان هو من أجل المال فقط.. كما هو الحال في الوطن العربي كله، فكلّ ما حصل ويحصل هو من أجل المال، فيدفعك ذلك إلى التفكير بشكلٍ أكبر وأعمق، ما الذي زرعه في هذا الوطن ليكون محصولنا مُنكّهاً برائحة البارود ومروياً بالدم وملوناً بالهم؟!؟

ذاكرتك لم تعد تتحمّل أكثر من ذلك أو أنك لم تعد تريدها أن تتحمل أكثر، فلم تعد تذكر سوى لقطاتٍ صغيرةٍ تحمل في طياتها ألماً كبيراً وقساوةً لم تمحها السنين، فلم تكن لتدسى ذلك الشخص الذي دُبح بكل دمٍ باردٍ أمامَ ناظريك، ولم تكن لتدسى صوت تلك المرأة التي تصرخ ألماً واستغاثةً من آثار التعذيب والاعتصاب والاستباحة الكبيرة المحرمة لجسدها وعاطفتها.

كلّ ما تذكره هو تلك الوجوه التي استيقظت عليها مع أصوات الأجهزة، لتتوالى عليك الصدمات بعدها بشدةٍ كبيرةٍ حيث أنّ ذلك الصوت الذي ظننته مجهولاً كان صوت صديق طفولتك.. ورفيق دربك، فتدخل في حالةٍ من الذهول والصدمة وتكتشف أنّ ما كان داخل تلك النفوس قد تغيّر لأسوأ شكلٍ ممكنٍ من أشكال الوحشية، فلقد قطعت شوطاً طويلاً من الزمن متغيّباً عمّا حولك، وتعلم أنّ مرحلة النقاء وصفاء الروح وحسن النية قد انتهت، وأنك لم تعد كما كنت سابقاً، وقد بدأت مرحلة ترفضها.. مرحلة جديدة كلّ ما فيها هو الكذب والخداع، ويحكمها الغدر والخيانة، وكدماتٍ تعبّر عن قلة وضعف الأمانة.

لم يبقَ لك سوى تلك الذكريات البائسة التي أدخلتك في مرحلةٍ نفسيةٍ حرجة عجز الطب النفسي عن تفسيرها غير أنها صدمةٌ وحالةٌ من الاكتئاب تشوب المكان ليس لك وحدك فقط.. بل لكلّ وطنك لتكون غريباً داخل وطنك.

تستوقفك تلك الوجوه في شوارع دمشق بعد ستة أعوامٍ من الحرب والدمار، يا لها من وجوهٍ شاحبةٍ وحزينةٍ تعلوها نظراتُ الخوف والقلق وشعورٌ غريبٌ بالندم، إنها وجوهٌ كبيرةٌ في السنّ لأعمارٍ

صغيرة وشباب ضاعت زهوة ربيع أعمارهم، فيقطع تأملاتك في تلك
الوجوه صوت بريء!

صوتٌ صغيرٌ لم يعلم من العمر شيئاً، فتاةٌ صغيرةٌ يبدو عليها فقرٌ لم
تعده دمشق سابقاً، جالسةً على قطعةٍ من الورق المقوى بثيابها
الممزقة كقلبها الصغير، كلٌّ ما جال في خاطري في تلك اللحظة أنها
ستطلب مبلغاً من المال فهذه الحالة باتت منتشرةً بكثرة في الآونة
الأخيرة مع تفشي الحرب، فقاطعت كلٌّ ما كان يجول بك بصوتٍ
حنونٍ وجميل يشبه أنغام فيروز في الصباح: "لا أريد مالاً ولكن على
ما يبدو أنك أستاذٌ في مدرسة.. وأنا أريد منك فقط أن تساعدني!!".

يا الله!! لقد جعلتك تخجل من نفسك ومن كلِّ ما كنت تفكر فيه، كيف
لم تنتبه لذلك الكتاب في يدها؟ كيف لك ألا تعرف ما كان يجول في
خاطرها؟ يبدو أنّ الحرب قد جعلتك ظالماً كحالتها ولم تعد تستطيع
التمييز ما بين الناس.

وافقت على الفور وبدأت تشرح لها تلك الأرقام البسيطة وهي تصغي
إليك تماماً، وتحاول أن تجلس بجانبها فكانت تلك الصدمة برفضها
قائلة جملتها الرقيقة والبريئة بلكنتنا المحلية: "لا توسخ بدلتك أستاذ"،
فما كان في مقدرتك التحمل وقد ملئت عينك أدمعاً، وبكيت وأخذتها
بين أحضانك واعتراك ذلك الشعور الذي فقدته منذ ستة أعوام مضت
كحال أي سوري، الشعور بالنقاء والحب والامتنان وصفاء القلوب..
والمحاولات البائسة رغم الفقر والجوع والتهجير، فلم يكن منك إلا
أن تستأذنها وتدعوها إلى الجلوس معك في ذلك المطعم الذي لطالما
اعتدت الجلوس فيه في منطقة البرامكة أمام باب جامعة دمشق..
محاولةً لطيفةً منك لشكرها على ما أعادته لك من مشاعر نبيلة لم تعد
تراها في دمشق.

بدأتم المسير معاً من جسر الرئيس أحد أشهر أماكن دمشق إلى وجهتكم وأنتم تتبادلون أطراف الحديث لحين وصولكم، وبعد ذلك الجدل الطويل معها أكملت ما كنت تشرحه لها وأجبت عن أسئلتها البسيطة، واتفقت معها على أن تجدها كل يوم في نفس المكان بعد أن تنهي تلك المحاضرات التي تلقيها، وودعتها على أمل اللقاء في اليوم التالي.

تحضر في موعديك كما اعتدت ولكن للأسف لم تجدها.. وكأنها كانت مجردُ سرابٍ من مخيلتك لتعود بذاكرتك للماضي الذي كنت تتمناه أن يكون حاضراً، ثم تحاول أن تسأل عنها في بعض الأماكن المجاورة لمكانها وهنا تعلم أن اسمها (عُلا)، وتسأل نفسك: كيف لم تسألها عن اسمها سابقاً؟ وللأسف اختفت بعد وجود العديد من الدوريات الشرطة المحلية التي كانت تسجن المهجرين بتهمة التسوّل.

تسوّل! لا أعتقد ذلك! أظنّ أننا نحن المتسوّلون، فهي لم تكن تريد سوى فرصة فقط لتحصل شيئاً ولو بسيطاً من اسمها، لم تنسَ يوماً تلك العين اللتين تنطقان بالأمل، وتلك الابتسامة التي تواجه مآسي الحرب والتهجير الداخلي، لم تنسَ أبداً ذلك التفاؤل العظيم الذي لديها ولكن اختفت عُلا واختفت معها معاني قسوة الحياة وعدم رحمة الحرب، واختفى معها المعنى الحقيقي للغربة داخل الوطن، الغربة عن مدرستها ومعلميها الذين أخبرتك عن مدى اشتياقها لهم، وبيتها المهديم ولعبتها التي لم تستطع إنقاذها من تحت أنقاض منزلها، كيف لطفلٍ أن يتحمّل كلّ تلك المعاني المؤلمة وكلّ تلك الآمال؟

لم ننسك ولم ننسَ أبداً أنك تتذوّقين طعم الغربة داخل الوطن أكثر من الجميع، فكلّ ما كنتِ تحتاجينه هو فرصة لتعيشي حلمك فقط لا غير.

الفصل السادس بداية البصيرة

لم أجد ما يمكن اختزال معناه في هذا الفصل، ربما هو الخجل والاستحياء مما آلت إليه الأحداث في دمشق، أو ربما إنكار الذات وجلدها مما سمعت وأسمع كل يوم.

مدينة الياسمين اليوم لم تعد تناضل ضد الإرهاب الذي حلّ لعنةً عليها.. وإنما اليوم دمشق تقاتل لتطرد الوباء الذي ساد أركانها ولكن كيف لها ذلك ولم ينطق أحد بكلمة؟ كيف ولم يحرك أحد ساكناً؟ هل هذا الموضوع بهذه البساطة والاعتيادية التي يمكن أن يتقبلها مجتمعنا؟

في أوائل العام السابع من الحرب أو ما تدعى الأزمة ظهر وباءٌ لم يكن في الحسبان، وأطلق عليه عنوانٌ مبهمٌ ولا يدلّ في ظاهره على مضمونه، والعجيب أنّ جميع الشباب اليوم يؤيدون هذه الظاهرة الغريبة.

إنه: "الدعارة العلنية"، أو ما يُسمّى بين طلاب الجامعات والشباب بالمساكنة، أبهذه البساطة والسهولة يمكن لأي شابٍ وفتاةٍ العيش في منزلٍ واحدٍ وممارسة حياتهم اليومية معاً وكأن شيئاً لم يكن؟

هل وصلنا في الفكر والتقدم والازدهار العقلي لتقبّل أفكارٍ كهذه بما تحمله من مساوئ ومحاسن، جميعنا نرغب بأن تكون دمشق ملوثة بروح الحياة والتقدم ولكن لم نرغب يوماً بأن تكون في هذا الاتجاه أبداً.

أهي الحرب أم الحياة أم الانفتاح المفاجئ الذي طرأ بسبب الحرب!! لا أدري ولكن المخيف هو رؤيتنا لما يحدث في مراكز اللقطاء في الغرب الشرقي يتكرّر في دمشق! يتكرّر في مكان ما كان يوماً يعتقد بذلك الفكر.. ويلفظه تماماً.

أحد أهم المشاكل التي واجهها المغتربون لدينا هو ما يحدث في مراكز الإيواء أو مخيمات اللجوء التي بات فيها كلّ شيء مباح، فيوماً نسمع قصصاً تفشّر لها الأبدان عن حالات خطف واغتصاب وتخالط أجناس وحتى التيتيم.

يا الله!! ما الذي يحدث أيمن أن نكون هربنا من الحرب لنواجه ما هو أسوأ منها وأشدّ عنفاً؟ أيمن لهذه القصص أن تحدث معنا؟

يمرّ العام وتنقضي به حياة جديدة في الاغتراب وألمه، وذكريات الوطن التي لا تنسى وأنواع الطعام الذي لم نعتد عليها سابقاً، فكلّ مغترب يشواق لرغيف الخبز الكبير المعجون من الدقيق الفاخر الأصفر.

تمرّ الشهور ولم يتسنّ لك نسيان ياسمين دمشق ولا ذكراها البسيطة، فمازلت تعيش على أمل لقيها وتحاول دائماً الاتصال والاطمئنان من بعيد، فلم يعد للقضية أي ودٍ ولا مأخذ لتعود من جديد.

لم تتخيل يوماً أن ما كنت خائفاً منه قد تسمعه، وتتحمّم جميع الآمال والأحلام التي عشت بها وتنفستها بشكل يومي بنفس الطريقة المتكرّرة.

إنه القدر.. قد وافق على حكمها، وامتلئ لرغبتها، وأتى منصاعاً
لأمالها، فلم تعد ياسمين دمشق التي تعلق قلبك بها مفعمة بالمشاعر
تجاهك، وجاء شخص آخر حلّ مكانك وألبسها خاتماً ذهبياً وألغى
حزنها على فراق ديانتها.

ارتدت ذلك الثوب الذي جعلها كأميرةٍ تفتن كلّ من يشاهدها ويتغنى
بها، فيبدو لك أن صوت ضحكاتها السعيدة قد تخطت الحدود
وتجاوزت المسافات وأتت إلى مسامعك لتفجّر بركاناً في داخلك
يجعلك تعنصر ألماً فوق ألم غربتك العصبية، فتقرّر الانتقام من ذاتك
وتقرر أن يكون هذا اليوم هو يومك أيضاً حتى لو كان بعيداً عنها،
فتجد تلك الفتاة أمامك وتعرض عليها الزواج متجاهلاً العادات
والتقاليد والأعراف واختلاف الثقافات وكل ما قد يكون واقعياً،
فتنجر في سيلٍ أنت أبعد عنه مما يكون.. وتقرّ بارتباطك رسمياً.

هيأت نفسك تماماً واتخذت قرار نفيك بيدك في المكان الذي أنت قابع
فيه.. وقلبك يقطر دماً ممّا يجري من حولك، فتقرر أن تحبّ من جديد
وأن تصبح أقوى، وأنه لا ضير أبداً أن يكون لك قلبان وأن حياتك
السابقة قد انتهت بعدما تمّ انتهاكها.

تبدأ الأحاديثُ بينكما وتبدأ معها رحلةٌ تظنها جميلةً ومستقرة، ولكن
لم يكن ما تريد.. فأنت ترى الياسمينَ دائماً ولم تستطع حتى الاندماج
والتقبل كما كنت مع ياسمين دمشق.

بدأت الوعود تنهمر منكما على أن تكونوا سعداء، وأن تكون هذه
الحياة أجمل بكما وأن تتحدّوا الصعابَ سوياً، ولكن يبدو أنك
انخدعت ونسيت أنك سورياً.

يُحدّد اليوم الموعود، وبكلامٍ مشدودٍ منمّق تُلفّ الورود، وتضع خاتمها في يدك وأنت تراه أبعد لك من بعد ياسمين دمشق، فالنارُ أصبحت نارين والقلب يتمزق ببطء.. مرسوماً ببسمةٍ مغفلةٍ وعقلٍ تائه، تستقبل عروستك وتدمع عيناك للوهلة الأولى وتلتقط نفسك قبل أن تنطق اسم ياسمين دمشق، ثمّ تبدأ الأفراح بشكلٍ لم تعتد عليه، وترقص متغافلاً عما سيحدث، وتنتهي يومك في تلك الكافتيريا في وقت متأخر من الليل، وتجلس منزوياً تمسح دموعك وتلتقط أنفاسك متعجباً مما بين يديك.

تمرّ الشهور تلو الشهور وتبقى مهمتك أن تسأل عن أحوالها متناسياً أنك مع غيرها وأن قلبك لا يجب أن يُجرّأ، ولكن الحقيقة أنه لم يتجزأ.. فما زال مع ياسمين دمشق، تقنع نفسك بخبر تريد سماعه منذ زمن: (أن يكون هناك أمل بلقاء من جديد)، ولكن ها هي تعلن زفافها وتغيّر اسم عائلتها وتغير مكان إقامتها وحتى حياتها متناسيةً ما كان وكيف كان.

تمرّ الأيام بصعوبة بالغة، فأنت اليوم في ظلّ مسؤوليةٍ كبيرةٍ، تبدأ بالتخطيط والتجربة والمحاولة بالنهوض، وقد خسرت عدداً كبيراً من أصدقائك بعد معرفتهم بخبر ارتباطك، ولكن هناك من يدفعك للخلف ويحبّطك ويجعلك تحملهما أكبر مما أنت فيه.

تساقطت الوعود وبدأ الغيث ينقطع ولم تستطع الاندماج الكامل، فعادات دمشق الأصلية ما زالت فيك لا تقبل أن تكون مذلولاً مسائراً.. فإنما أنت ربّ بيتٍ متحاملاً وحاملٍ وقادر.

تنقطع سبل الكلام وطرق التواصل وكلّ ماتراه عيناك يذكرك
بياسمين دمشق.. والمقارنة هي ما تجعلك تعاني بكل المعاني
وتستصعب الأمر مع مرور الأيام.

تحاول النهوض والوقوف والنسيان ولكن قدرك محكوم بالحنين ولو
امتد لسنين، فتنتهي كل تلك الطرق إلى نقطة سوداء آخرها التفضيل
والاختيار بين الشريك والأهل، وهنا يتحمم عليك الاختيار، وقد يكون
هذا أصعب قرار تتخذه، متجاهلاً كل ما قد أتاك وكل ما أنت فيه
محاولاً النهوض والاحتفاظ ولكن قد قطعت جميع السبل أمامك، فلم
تعد تتقبلها ولا حتى تريد رؤيتها.. وبتّ تكره نفسك معها، فتضطر
لتحمل عواقب قرار أنت اتخذته، وهنا تقرر الانفصال وتجد أن
الصمت أبلغ رسالة تعبّر بها عما تعانيه وتقاسيه، فترسم حياتك من
جديد وهنا يعود الصوت القديم، ولكن كيف؟... كيف سيعود؟

بكل بساطة تجد ياسمين دمشق من ضمن مقترحات أصدقائك، فتلفظ
أنفاسك وكأنك شممت ترياق الحياة.. وتبادر بالكلام والسؤال بأسلوب
مباشر وتتنظم في المتابعة بشكلٍ معلن، ولكن هذه المرة بشكل
مختلف، فلم يعد لك الحق بالقول والبوح، ولم يعد لك الحق بالاهتمام،
ولم يعد لك الحق حتى بالمراسلة.

ما هذا القدر! أهو قاسٍ إلى هذه الدرجة حتى يجعلك تعانق الموت
مرتين؟ ألم يكفٍ ما قاسيته من عناء الغربة؟ ألم يكفٍ ما تعانيه من
مشاكل في العمل؟ ألم يكفٍ ما أنت فيه من ألم؟ ألم يكتفٍ بكل ذلك
الوجع ويريد المزيد.

نحن لسنا محكومين بالغرابة، نحن محكومون بالحنين والشوق والأين، نحن محكومون بأن يكون هذا الحب من المستحيل، فلم يكتفِ القدر بعرقته بالاختلاف الديني بل أضاف إليه الزواج والبعد وأطفال ليس لهم ذنب.. وحياة رجل يعيش بهناءً مع تلك الطفلة المدللة التي لطالما كنت تحلم بها، إنها أفعالٌ مباحةٌ للغرابة والقدر والحرب في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

البعض سيرى أن هذا الحب هو خيانة، وأن هذه المرحلة لا يمكن إتمامها، ولكن ما أراه القدر أن تكون في وسط هذا الألم، وأن تكون محافظاً في كلامك جداً وألا يكون هناك أي كلام خارج إطار الكلام العادي جداً بين الأصدقاء فقط، لقد أصبحت ملزماً أن تلعبَ ضمن أحكام القدر الجديد، فأنت اليوم مجرد صديق لا أكثر.. مجرد مستمع لهموم من تحب وتعشق، فتبدلَ جهدك أن تكون متماسكاً دائماً رغم كل ما قد تعانيه.

يبدأ الحديث بمشاركة الهموم والأحداث المتفرقة وتبدأ بمعرفة التفاصيل التي تعيشها، تقرأ وأنت تتألم من كل حرف مكتوب وأنت مجبر على عدم إبداء أي ردة فعل.. فأني واحدة قد تؤدي إلى الهلاك، تسمع تفاصيل المشاكل ويُطلب رأيك فتجيب بعكس ما في قلبك حريصاً على الإصلاح بينهما، فتبكي بصمتٍ.. وقلبك يزداد جرحه يوماً بعد يوم.

يتوقف نبض قلبك لثوانٍ قليلةً بعد كلمة واحدة تعبر عن الاشتياق فتصمت ولا تجيب، تحاول تجاهل الموضوع ليتوقف قلبك مرةً ثانيةً عند تلقيك اتصالاً تسمع فيه صوتها بعد غيابٍ دام فترةً طويلةً، تجيب قلقاً متمرداً على كل ما في خاطرك، ويكون الكلام بحدٍ شديدٍ منك وارتياحٍ كبيرٍ منها، لتعلق الهاتف على جملةٍ قاتلةٍ: "جاء زوجي".

كلّ ما أنت فيه يفتلك، هل كل ذلك خيانة، أم أنه مجرد صداقة؟

قد يبدو لك أنها صداقة ولكنها من أصعب الصداقات التي تملكها، وقد يبدو لها أنك ملجأ تفرّغ فيه مشاكلها وتكون أنت المرشد للإصلاح فيما بينهم، تمضي الأسابيع لتبدأ الأسئلة والخوض أكثر ضمن تفاصيل ما مررت به وما مرّت به، لتفهم من طيات كلامها أنها تزوجته من أجل ماله وأنه فاحش الثراء ولكن لم يلتفت لك بال، وتشدد المشاكل لديها وتسمع منها قراراً بالانفصال، يقاتلك قلبك وعقلك بأن تؤيد قرارها ولكن تفكر بما ستعانيه من هذا القرار فتجيبها بأن تتراجع وتحاول إقناعها بالعكس تماماً، وقلبك يزداد ألماً مع كلّ كلمة تنطقها أو تكتبها.

تتغير الأحوال ونبقى نحن أسراها، مجبرين على التعامل معها.. ولكن كلمة واحدة أو موقفاً واحداً قادراً على أن يغيّر كلّ شيء، فلم تتوقع أن يطلب منك ما هو أبعد من الخيال وما هو أقرب الى الوهم، أيمن أن يكون الزمن قد تغير؟ أيمن أن تكون أنت فقط من لم تتغير؟ أم أنك كنت مغفلاً معمياً بالحب الذي يرى كل شيء جيداً؟

من هنا تبدأ البصيرة والبعد في النظر أكثر والتعلم أكثر، أنت لم تكن أعمى البصر.. بل أعمى البصيرة، وكان لا بدّ من بدء البصيرة والنظر عن قرب أكثر، فإما أن تكون بصيراً مستنيراً أو أعمى مستغفلاً.

الفصل السابع

قدر

أصعب ما قد يصيب أي إنسان أن يكون داخله ناراً ملتهبةً، فيحرق بها من حوله أو كل من يقترب منه دون إرادته، والأصعب من ذلك هو محاولاته التي لا جدوى منها، وظنونه بأنه يحرق نفسه فقط، فكل يوم يمر من الممكن أن يكون هناك ضحايا جدد وهو لا يدري.. ولكن ماذا يمكن أن يفعل إذا كان قدره أن يكون ظالماً حتى لو لم يعتمد ذلك.

لطالما تساءلت كثيراً حول الظلم، هل يمكن للظلم أن يتغير مفهومه؟ هل من الممكن أن يكون الظالم بريئاً من إجرامه في حق نفسه؟ لم أستطع أن أجد إجابةً لهذا السؤال، لأن الظالم لا يشعر بنفسه أنه ظالمٌ، وقد يظن نفسه مظلوماً ولكن ما أنا متأكد منه أن القدر قد يتدخل ويغير ما لم يستطع أحد تغييره.

أجلس في ذلك المقهى الكائن في تلك البلاد العربية وأنظر في عيون الجالسين، وقد أكون أستمع لمقنطفاتٍ من أحاديثهم، لا أدري إن كان يحق لي اختراق خصوصيتهم ولكنني متأكد أنني قد اختنقت من تلك النظرات وتلك العيون حولي، فكل واحدة تكمن خلفها قصة كبيرة ورواية قد تكون خيالية.

لقد تساءلت كثيراً حول رواياتهم فالرجل الجالس أمامي يبدو عليه الثراء ولكن عيونه لم تكن تنم عن الراحة.. حتى أن ضحكته الخائفة وهو يتحدث عبر الهاتف تنم عن إضرابٍ كبيرٍ وقلق، يقبع بجانبه مجموعة من الشباب لم تتجاوز أعمارهم الثامنة عشر، كل واحد فيهم يتحدث عن حاله، ضحكاتهم الغريبة لا تشير أنهم سعداء مما يعايشون، وأكثر ما لفت انتباهي بينهم ذلك الشاب الذي قرر أن يلعب رغم أنه وسط أصدقائه، عيناه لم تكن تشتكي ولكن كانت تعبر عن اليأس وفقدان الأمل أو الهدف أو حتى الاختيار، ومن الناحية الأخرى يوجد طاولتان.. في كل واحدة منها شابان، وجميعهم منشغلون جداً

في تلك المباراة التي أمامهم، ومن المرجح أنهم يتابعونها ليشرحوا أنفسهم عن همومهم، فبرغم ما يبدو عليهم من الثراء ولكن على ما يبدو إنهم عاطلون عن العمل، وإن ثراءهم ذلك من أهلهم، تلك النظرات التي يعلوها ألم كبير ووجع حقيقي تخفيه عيون دامعة وقلوب صامتة وُيدت وهي ما تزال طفلة، ما أثار فضولي حقاً هو ذلك النادل الذي يتعامل بكل لطفٍ محاولاً الابتسام، قصص كثيرة قد تخرج من مجرد النظر إلى تلك العيون.. فتشعر بمدى اليأس والتعب والاختناق الحقيقي.

إن كان القدر هو الذي يغيّر موازين الظلم، فهل يتغير القدر؟

قد لا نستطيع تغيير القدر ولكننا بالطبع نستطيع أن نتحكّم بنتائجه، فجميعنا محكومٌ بقدره ومظلومٌ به، ولكن كم نحن مظلومون!

إنّ نظرية الظالم والمظلوم لم أتفق معها أبداً فجميعنا مظلوم وظالم، والفرق بيننا في قدرة التحمل فقط، فهناك من قرّر أن يكون ظالماً بشكل أشدّ معتقداً أنه يدافع عن نفسه، والبعض الآخر قرّر أن يكون ظالماً بسيطاً يكفر عن ذنبه بما يأخذه من ظلم، قد لا يتفق معي البعض ولكن كلّ واحد منا له دفتر ذكريات يحكمه بظلمه وظلامه.

إننا نعيش في كونٍ مليءٍ بالظلام متعايشين فيه باعتبارنا أصدقاء له وغالباً ما نلقي لومنا عليه، ولكن لماذا.. لماذا تلقي اللوم على الظلام؟ من المحتمل لأنه قويٌّ وأكثرُ وجوداً ودواماً، حتى في وضوح النهار يظلّ متواجداً في ظلالنا التي تعكس شيئاً من ظلامنا.. لذلك لا تلم الظلام، أنت فقط لم توقد النور وقرّرت الظلمة بمحض إرادتك.

إن أوقدت النّور عليك أن تعلم أنك قد تكون بين أمرين: إما الحقيقة وإما الوهم.. وأحلاهما مُرّ، ولك أن تقرر بينهما، فإمّا أن تواجه قدرك وتحاول أن تكسب جولتك مهما كانت النتائج والأقدار المرسومة، وما قد يجعلك تتخذ قراراً كهذا إما صدمةً أو موقفٌ يجعلك تشعر بالغرابة أو قراءتك للأحداث محاولاً اتخاذ قرارٍ لا تندم عليه في وقتٍ لاحق.

ذلك الطلب الغريب جعلك تراجع دفتر ذكرياتك ومحطات حياتك الصعبة غير مبالي لحجم الألم الذي تشعر به من مرارة هذه الذكريات وسقطاتك في حياتك لتبدأ تفكّر جلياً، وتتسلّل الشكوك التي لم تكن يوماً لديك تجاه الياسمين وتأخذك برائحة ياسمين غريبة لا تريد تصديقها.

وهنا تبدأ حربٌ جديدةً من نوعٍ مختلف، يشعلُ مرارة الغربة التي لم تنتطفئ، تحاول التأقلم مع كل ما يجري من حولك، القرار الصحيح أن تقتل ما بقي منك وتغرب، ذلك الشعور الذي لم يعد غريباً عنك أبداً، وهذا ما لا تستطيع فعله رغم كل محاولاتك، ويبقى صوت قلبك يقتل جميع شكوكك الوليدة من استنتاجاتك!

إنّ معاشة الألم شعورٌ صعبٌ، تضع نفسك مكان ذلك الرجل فتكره ما بك من هموم وتنكر تلك العلاقة التي لا حقيقة فيها، و لا يمكن معرفه أسرارها، ويبقى ذلك القلبُ محكوماً لمن يحبه ولكن أسيراً منغلِقاً منعزلاً لا ينطق ولا يصدر صوتاً بعد كلّ ما عاناه من غربة.

تلك القصص التي تراها من حولك تجعلك تتقنُ إلحادك في الحب ومعاناته، وتجعلك بعيداً عن كل ما يتعلق به، فما بال تلك المرأة التي

أحببت رجلاً لا يأبه بها، أو أنه يغذي غروره عليها وهي ترخص من نفسها لتصل لأمواله التي يدعيها.

تتعدّد الأمور أكثر فذلك الرجل الذي حاولت مساعدته يظنّ أنه يقوم بالمثل!! فقام بإغواء فتاة بك، ولكن كان الوقت قد تأخر كثيراً وفات الأوان ولم يعد هناك مجال للعودة، وإنك قد سئمت من كل ما يجري من حولك، فكلّ ما تفكر به هو إشعال النور، فلم تعد ترى نفسك في طيات ذلك الظلام.. وهنا تبدأ رحلة الصدمة الحقيقية، صدمة تجعلك لا تؤمن بأحد ولا تثق بأحد حتى بنفسك.

تأخذ أنفاسك وتقرّر بإصرارٍ الدخول في اللعبة، وتقرر أن تكون لاعباً لا حجر شطرنج يتم تحريكك، فتكسر الأغلال وتخرج من تلك الظلمة الدامية التي جعلتك أعمى.

تبدأ البحث والتعمق في تفاصيل كلّ شيء، فتجد أنك كنت ظالماً بحجم ظلمهم لك، لقد جعلوك ظالماً.. يتملكك الغضب وتقرّر تغيير قدرك الذي وضعك في هذا المكان، في بعض الأوقات تكون مجبراً أن تبعد بعض الذين تحبهم عن حياتك لكي تستمرّ في الحياة، فلم يعد لديك القدرة على تحمّل كل تلك الأكاذيب، كالصداقة التي حكمتها الغيرة والحسد وجعلتهم يحاولون بشتى الطرق إفشالك وتدميرك، وأولئك الذين تقربوا منك لتحقيق مصالحهم وغاياتهم الشخصية، وحاولوا جعلك أداة في أيديهم محاولين استغلالك بكل الطرق المتاحة لهم.

كل تلك القيود لم تكن موجودة في الوطن، كل تلك الإهانات لم تكن في الوطن، كل تلك الأوجاع لم تكن في الوطن، كل تلك الأكاذيب لم تكن في الوطن، هل يمكن أن يكون هذا الوطن الذي يعيرونك به

أفضل منهم، أم أنك في الوطن لم تكن تعرف له قيمةً أو لم تجد له معنى؟

وصل الطريق مع ذلك الياسمين إلى النهاية، وتقرّر أن تثبت مايجول في خاطرك، وتقرّر الوثوق بالواقع بعيداً عما يجول في نوايا الياسمين، فهذا الحب بدأ يقتلك ببطء وبدأ يجعلك ظالماً، فبرغم كل ما تعرضت له في ارتباطك قرّرت أن تعلن بُعدك بصمت كما حصل معك تماماً، وعلى الرغم من اعترافك بذلك فسوف تبقى ظالماً.

تبدأ الخسارات بالتتالي وتبدأ بالعودة لما كنت عليه من قبل، وحيداً بعيداً منفياً ولكنك لم تكن تستطيع إدراج الياسمين ضمن ذلك برغم كل ما بك، ولكن كيف ستبتعد فلا تجد لذلك سبيلاً، وإن ما بدر منك أصبح في طيات الماضي وهنا تأتي مرحلة الانتظار.

الانتظار.. هو المرحلة الأكثر صعوبة والأكثر ألماً لأنها تفسح لك المجال لكي تفكر بكل الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة، وتجعلك ترسم خيالات كبيرة وقصصاً كثيرة، وكل احتمال يجعلك خيالك تعيش ألمه أو فرحه، الانتظار قد يكون مجموعة من المشاعر التي لا يمكن ضبطها ولا التحكم فيها، وقد تؤدي بك إلى الهوس أو الجنون.

إن الانتظار هو أخطر ما قد يواجهك، فالانتظار لا يدعك ترى السماء بتلك النجوم.. بل تراها بتلك الأحداث وتلك الأحاديث، ويجعلك تندم وتفرح وتحزن وتشكر في وقت واحد، يجعلك شارد لا تفكر في شيء إلا ما تنتظره فقط.

ولكن هذه المرة لم تنتظر كثيراً إلى أن جاءك ذلك الرد الذي جعلك تعلم حقيقته كل شيء، ولكن هل ستستطيع مقاومة هذه الحقيقة؟ هل ستقبلها؟ هل ستعايش مع ذلك السراب الجميل الذي كنت فيه؟

مواجهة الحقيقة أصعب من الحقيقة نفسها، ولكن في بعض الأحيان تكون مجبراً على المواجهة وتقبل واقعك، فتقبل الحقيقة قد يجعلك تتعلم أكثر وأكثر، ولكن هذه المرة بصمت فكلما تقدّمت في العمر تعلّمت بعمق أكبر وصمت أكثر.

ها هو الياسمين يختفي من جديد بنفس الطريقة وبنفس الأسلوب القديم، ولكن هذه المرة قررت عدم البحث عنه، ولم تعد تجد راحة الجمال لديه، فلقد وضعت بين بضع كلمات جعلتك تشعر بحبه الذي لم تستطيع أن تجد بديلاً عنه.

ها أنت الآن تعيش شعور المظلوم وتفهمه جيداً، ولكن ماذا لو كان هناك أسباب أخرى جعلت الياسمين تختفي من جديد؟ أيمن أن تكون اتخذت قراراً بشأن الحفاظ على زواجها وكان القدر سيئاً بينكما؟

ها أنت أيضاً تعيش شعور الظالم وتفهمه جيداً، و تبقى محكوماً بدفتر ذكرياتك ظالماً ومظلوماً متعايشاً مع ذلك الوضع، ملحداً بكل تلك المشاعر وكل تلك الروايات التي تجعل الحب في أعيننا عظيماً، وتراه أكبر مصدر للألم يشعر به الإنسان، فتقرّر العزلة والتوقف والانتظام بالإلحاد.. وتجعل غربتك عنه أبديةً متقناً دور الألم الذي نجم عنه.

تقرّر النهوض بعد كل تلك الأزمات، وتحاول العيش بكل ما بقي منك، معتزلاً ما قد يشوش صفاءك، فأنت لم تعد تستطيع رؤية أحدٍ آخر يحترق بنار قلبك وشوقك الذي بقي لدمشق وياسمينه الأبيض الملطخ بالدماء الحمراء، وأصبحت تعيش على ذكريات وطن.

الفصل الثامن

تجرد

لم يتخيّل أياً منا أنه سيشعر بهذا التناقض، ولم نحسب يوماً أننا سنصل إلى ما نعيشه الآن، لقد بقينا طوال عمرنا خائفين من أن نعيش واقعاً يشابه واقعنا، لم يكن بمقدور مخيلتنا البسيطة أن ترسم لنا مثل هذه الأوقات ومثل هذه الترهات التي نعيشها منذ ثمانية أعوام أو أكثر، فمازلنا نترقّب قدرنا ونحاول التعايش مع الذي يحدث في حالة صدامٍ دائمٍ، ومفاجأةٍ لفاعجةٍ كبيرةٍ.

لا يمكن أبداً نسيان الوطن مهما حاولنا ذلك، فأصغر موقف قد نمرُّ به سيجعل الذاكرة تعود بشكل تلقائي إلى وطننا وماضينا، فلا تعلم هل تقول ما تشعر به أم تصمت؟ وهنا تجد نوعاً جديداً من الألم.. لأن أكثر شيين يتعبان الإنسان كثيراً هما: "التكلم عندما يجب عليه الصمت والصمت عندما يجب عليه التكلم".

لا تعلم ما الذي يجب أن تفعله ولكن عليك النهوض والمتابعة، فيجب عليك ألا تنسى أنك ابن الياسمين.. ابن أقدم عاصمةٍ في التاريخ، انظر إلى نجاحات أبناء خريطتنا رغم غربتهم، لقد أثبتنا للعالم أجمع أننا نولد من رحم النار كما العنقاء ونثبت أعمالنا كما الأساطير.

لا يمكن الإنكار أن هناك من أضره الانفتاح على العالم وجعله بعيداً عن رؤية أخلاقنا السورية المؤصلة منذ أربعة آلاف عام، ولا يمكن الإنكار أيضاً أن ما نتعرض له من بعض أشباه البشر وكمّ الأذى النفسي والمعنوي والجسدي الذي نعانيه كل يوم.

قد تكون كل تلك الأحداث التي مرّت على كل واحد منا بمثابة اختبارٍ لنا، واختبارٍ لأصولنا وتأثير تعارفنا على العالم الخارجي بشكلٍ أفضل، ومعرفة أن العالم لم يكن وردياً كما جعلنا أهلنا نتخيله

ونعيشه، قد تكون مجرد اختبارات انتقالية لما هو أكبر وأعمق وأكثر
ألماً، وقد تكون رحلة صغيرة تُعلمنا أننا لم نكن يوماً أبرياء وأن كل
واحد منا له آثامه الخاصة.

كل تلك المعاني التي كُنّا نكتب عنها ونصورها بتنا اليوم نعيشها بكلّ
تفاصيلها لرسم تفاصيل ومعانٍ جديدة لم نكن يوماً نعلم بوجودها،
فذلك المزيج ما بين الغربة والحرب والتهجير خلق منا أشخاصاً
جديدةً، وخلق منا آلياتٍ تعيش بإصرار على أن تعود كما كانت سابقاً،
ولكن عندما نعود هل سنكون كما كُنّا؟

تلك الآثام ما زالت تزيد يوماً بعد يوم، فهناك من لم يتعلّم أنّ هذه
الأحداث وهذا فقدان قد يكون عقاباً على أفعالنا، بل يقنع نفسه بأنه
بعيد عنه ويكمل في آثامه وآلامه الخاصة.

كثيراً ما تساءلت حول الظالمين هل لديهم شعور بالألم؟ هل لديهم ما
يجعلهم يندمون ويتألمون؟ هل لديهم عثرات؟

في الحقيقة الإجابة تجعلنا نبرّر آثامهم وآثامنا و نبرّر كل أفعالنا،
ويجعلنا نحلّل كلّ ذنب اقترفناه، ولو قارنا أنفسنا اليوم بما كُنّا عليه
سابقاً فماذا سنرى؟ هل تغيرنا حقاً أم كُشِف الستار عنّا؟

أكثر من عانى من هذه الحرب وهذه الفوضى هم جيل التسعينات
الذين عاشوا ما بين العشرين وعاشوا الأزمة بكلّ تفاصيلها وحاولوا
الانتقال بسلام، فتلك التناقضات لم يكونوا جاهزين لتقبلها، فبعضهم

عاش نصف طفولة والبعض الآخر عندما بدأ في بناء مستقبله تدمر الوطن.

الوطن.. تلك الكلمة المفصّلة من ثلاثة حروف.. لا تجد لها إلا ذكريات كانت في الماضي ومازلت تعيش على ذكراها حتى الآن، ذكرى تلك الشوارع والضحكات والسهرات والأمال.. والقهوة الصباحية على أنغام فيروز ورائحة الياسمين وعبق دمشق، ذكريات حُكِمَ عليها بالتغيّر لتصبح شوارعاً مهدمةً وصرخاتٍ مؤلمةً وخوفاً في العتمة ويأساً متفشيّاً وقهوة لم يعد لها طعمٌ ولا رائحة، ودماً وموتاً منتشراً في الأرجاء.

جميعنا بكل اختلافاتنا الدينية والسياسية اتفقنا في النهاية على أمرٍ واحدٍ وكلمةٍ واحدةٍ وهي: "الوطن"، فقدناها ونحاول البحث عن بديلٍ لها ومأساتنا أننا لن نجد لها بديلاً مهما كان ظاهره.

لقد تبدّلت الظروف بقناعاتٍ لم نكن يوماً نعلم عنها شيئاً، لتدمر كل ما نملك وتضع ذلك المستقبل في طي النسيان، فتغيرنا جميعاً وبات الحزن هو الشيء الوحيد المتفق عليه في ملامحنا، فكلُّ منا فقدَ شخصاً عزيزاً وتغرّب له شخصٌ آخر، وذاق مرارة الحرب بطريقته الخاصة، حتى أولئك الظالمين منا عانوا معاناتهم وأطلقوا ويلاتهم علينا جميعاً.

ثماني سنواتٍ من الحرب كانت كفيلاً بجعلنا أمواتاً على قيد الحياة، لدرجة أننا لم نعد قادرين على العودة ولم يعد بإمكاننا التأقلم على بلادنا من جديد، فحُكِمنا بألمٍ لا مفرٍّ منه كزوبعةٍ لا منأى منها طالت

الجميع، فلا تكون سعيداً في وطنك مفقداً غربتك.. ولا سعيداً في
غربتك مفقداً وطنك.

علينا أن نكون صريحين: إن ما حدث كان من صنع أيدينا، وإن ما
نعانيه من ظلمٍ في غربتنا بسبب تنازلنا عن أهم ما كُنّا نملك من
كرامتنا.. فسمحنا لغيرنا باستعبادنا واسترقاقنا وحتى إهانتنا متسائلين:
ألم نكن محسنين لهم يوماً ما؟ فنتعلم أهم دروسنا أن لا أحد يحفظ
المعروف ولا أحد يقدم العون، وإن عاداتنا كانت لنا فقط، وإننا كنا
في حياةٍ ورديةٍ نعيش بتأخٍ ومشاعرٍ نبيلةٍ، وكُنّا دوماً نصراً لكلِّ
مظلومٍ ولكنهم بظلمهم وقسوتهم جعلوا منا أناساً متبليدي المشاعر
وظالمين.

ننتظر النهاية كلَّ يومٍ بفارغ الصبر، ونعيش على أمل أن النهاية
ستكون في الغد سعيدة وسيعلمون رحيل أزمنا وأنا عائدون إلى
أحضان أرضنا.. ولكن بتجرّد نوقن أنها كانت نهاية البداية لا غير.

الفصل التاسع

نهاية البداية

قد أكون وصلت إلى نهاية هذا الكتاب ولم أَلَمْ إلا ببعض الجوانب التي نعيشها كمغتربين، مجبرين على التأقلم مع الألم والوجع والحياة المليئة بالأسرار والخوف والتي لم تكن يوماً كما نعتقد.

العيش مع الأسرار أمرٌ صعبٌ، فكلُّ منا لديه أسرارُه وآثامه وأفكاره الخاصة التي لم يَبْحُ بها أبداً، وربما لم يستطع الاعتراف بها حتى أمام نفسه، فأياً كنت وأياً من تكون تقرأ هذا الكتاب فأنت تعلم جيداً أنه قد لامسَ ولو جزءاً بسيطاً من الحقيقة المرّة التي لم تتجرّأ على الاطلاع عليها أو البوح بها.

أياً تكون.. سواء كنتَ سورياً أم مصرياً أم لبنانياً أم عربياً بشكلٍ عام، فأنت لم تقرأ إلا القليل مما عايشناه من الاغتراب والحرب والحب والندم، ومحاولاتنا المريرة للعيش بكرامة، والقتال للاستمرار في العيش ضمن حياةٍ لم يستطع أحد فهمها، الحياة فعلاً لم تكن كما نعتقد وليست بكل تلك البساطة، وفي كلِّ يومٍ نعيشه لا بد لنا من تعلم درسٍ جديدٍ.

لم يكن ذلك الشاب الذي صعد على متن تلك الطائرة يختلف عن ذلك الذي صعد على متن السفينة أو القارب الصغير، فكلهم كانوا يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم ذاهبون بدون عودة، وأن الألم القادم ليس بتلك البساطة، وأن ما عايشوه جعلهم مشوهين داخلياً لا يقاومون وبلا أهداف، والباعث على نجاتهم إنما هو دماء العنقاء السورية التي تحمل بداخلها جينات المقاومة والمحاربة وعدم معرفة المستحيل.

أن تكون مغترباً يعني أن تكون مشاعرك مختلطة، وأن تكون سورياً يعني أن تكون مشوّه المشاعر فلا تستطيع أن تكون ضمن الحب، ولا

تستطيع أن تكون ضمن الوطن، بل يجب أن تكون صلباً متجمداً لا تستطيع حتى البوح بأسرارك، ولا حتى التوبة من ذلك الإثم العظيم الذي تربيت عليه، فلا تستطيع التخلي عن حب تلك الأرض التي نشأت على جنباتها، ولا تلك الدماء التي تجري في عروقك، ولا تلك المشاعر التي تربطك بالياسمين الدمشقي الذي بات مرصعاً بدماء عشاقها.

الحرب والحب كلمتان متقاربتان، فبرغم اختلاف معانيهما إلا أن الفرق بينهما هو حرفٌ واحد فقط.. حرفٌ لديه القدرة على التدمير والقتل وإنهاء حياة أناسٍ ليس لها أي ذنب إلا أنها تعلقت بحبٍ وعطفٍ وصدق، ذنبها فقط هو العصيان والتمرد على الحرب بالحب، ذلك الحرف الذي يقود كل ما فينا إلى النهاية أو إنها قد تكون البداية.

ما بين الاغتراب والعمل.. والحب والعاطفة.. والحرب والندم، تجد لك رفيقاً واحداً في مسيرتك وهو الخذلان، فقد تكون خاذلاً أو مخذولاً وكلاهما أصعب من أن تواجه هذه المشاعر بقلبٍ متعبٍ ومرهق من قسوة ما عايشته، وقسوة ما اتخذته من قرارات، فلا قرارك في البقاء تستطيع تحمله ولا قرارك بالاغتراب تستطيع تحمّل مصائبه، فالكثير من السوريين الآن يعانون بكافة الأشكال، فالوطن لم يعد كما عهدناه لقد غيرته الحرب وانتهى منه الحب، فالوطن ليس فقط تلك الأراضي والبنيان والشوارع التي تحمل تلك الذكريات السعيدة بل أيضاً هو مشاعر، تلك المشاعر قد غيرتها السنين العجاف التي أصابت ذلك الوطن، فقرّر بعض أبنائها الخروج للبحث عنها ولكننا جميعنا صُدمنا بأنها ليست موجودة إلا في ذلك الوطن المغدور، ولم يعد لتلك المشاعر أي وجود.

العلاقات التي تجمعنا ببعضنا قد تكون هي سبب وجودنا أو حتى عذابنا، فعذاب الحب الضائع أو الخذلان الشائع ما بين العشاق قد لا يساوي مأساة وعذاب الغربة عن الوطن، وحب الوطن لا يقارن بأي حب آخر.

لحظةً بلحظة قد تصل.. إلا أن الحب لا مكان له بين هذه القلوب المشوهة، والإنسانية ليست موجودة إلا في كتبنا وإعلامنا، محاولين إعادتها بحديثنا وكتابتنا عنها، مجاهدين أنفسنا ألا نخسرها، فأنا لستُ موقناً بعودتها كما أنني لستُ موقناً بعودتنا من اغترابنا.. ولكنني انتظر ذلك اليوم الموعود الذي سيجمعنا بوطننا ومشاعرنا الغائبة وإنسانيتنا المفقودة وعودة حياتنا السابقة واحترامنا بشكل كامل.

إنّ الحرب والتطرف جعلونا أمام العالم إرهابيين.. ومتطرفين عديمي المشاعر، فالיום نُذكر في أعلامهم وأفلامهم وبلدانهم على أننا خطر وتهديد على الآخرين، ولكن ما لم يعرفه العالم أجمع أننا كنا وسنبقى من جعل للحب اسماً وللإنسانية علماً وللحضارة قسماً، فبرغم جميع أقوالهم وإهاناتهم لنا لا يستطيعون إنكار تأثيرنا على اقتصادهم ومشاعرهم، فزرعنا الحب والود، ونشرنا ثقافتنا بينهم، ونحن العنقاء التي نثرت غبار نارها.. وأطلقت العنان بينهم لتلون حياتهم.

تلك القصص والآثام والأحزان التي أسمعها كل يوم من أولئك الأشخاص - الذين جعلوني مقرباً منهم - جعلتني أوقن أن هذه الحياة ليست بتلك الطهارة والعفة التي كانت في الوطن.. وأن الحرب الحقيقية هي حربنا على أنفسنا، فبرغم كل ما ألمَّ بنا كسوريين إلا أننا مازلنا نستمتع ونتألم على أحزان غيرنا من الشعوب، وذلك يجعلني أوقن أنه ما زال هناك فرصة لعودتنا كما كنا يوماً ما.

قد نكون وصلنا إلى الختام وهناك الكثير ممّا لم يذكر ولم يُقَل، ولن نستطيع البوح فيه بسبب أدّى قد طالنا، ولكن ستبقى تلك الذكريات ورائحة الياسمين تربطنا بالحياة وتربطنا بأمل العودة وفتح تلك الصناديق التي تحمل مفاتيح أبوابنا.

قد يلقي عليك هذا الكتاب بمشاعر الألم والحزن، وقد يجعل السوريين يتذكرون بعضاً من مآسيهم، ولكن هذا الكتاب قد نقل بعضاً من القصص التي عايشها بعض السوريين وحتى التي عايشها الكاتب، ولكنه يجعلك تفكر ملياً قبل الحكم على المغترب.. وقبل الحكم على ما مرّ به من آثامٍ قد عُصِبَ عليها دون إرادة.

هذا الكتاب هو رسالتي للعالم بأننا لسنا كما تبدو عليه ولسنا كما ندعي، وأننا نحمل بداخلنا وطناً وأماً وحباً، وبرغم كلّ ما نظهره من إنجازاتٍ وتقدّمٍ وازدهارٍ.. فقد تكون أنتَ خيبةً لشخصٍ ما وأملاً لشخصٍ وحلماً لشخصٍ آخر، ولكن الأکید إنك لم تكن يوماً كما تعتقد.. فمازلنا لا نستيقظ على وطن، ولا ننام على وطن، ونأمل أن نعيشَ في الوطن.

عامان على الغربة

أحمد شامي

لم نختَر أن نكون غرباء و لكن اخترنا العيش على ذكرى الأبناء إن اصعب ما قد تواجهه في هذه الحياة هو العيش بحياتين مختلفتين و خيارين أطلاهما مرّ و لكنك مجبر على الخيارات ما بين الحياة و ما بين الواقع.

لست بكاتب ولا شاعر و لكني أكتب لكل مغترب و لكل عاشق متفرق أحاول بهذا الكتاب أن انقل صورته بنظره قد تكون ثقيلة لبعض المغتربين و أحاول جعل هذا الكتاب إطلاله و إعتراض على قضايا قد تكون مهمة لأنها شها و أنتقدتها عن طريق قصة عشق في زمن الحرب و الاغتراب .

قد يلامس هذا الكتاب و هذه القصة البعض و قد تكون فيها بعض الأحداث التي عايشتها و لكن ما أنا متأكد منه هو أنني أكتب و جع جيل عايش ذنب لم يكن ذنبه .

قد يكون في قلبي بعض الأماني أن تصل هذه الكلمات لصاحبها و أن يكون وصفي له متقن. و لكن تبقى النهاية هي الحكم .

لم نختَر الاغتراب و لكننا إختَرنا ما نحن به في الاغتراب إما أن نكون ملهمين أو أن نكون سراب .

الكاتب : أحمد شامي

الكاتب : أحمد شامي

استشاري ادارة موارد بشرية و اعلامي تنموي و مقدم برامج و ريادي أعمال مختص في إدارة الموارد البشرية و مدرب تطوير موارد بشرية مستقل .

حائز على العديد من الشهادات التكريمية و التخصصية في مجال التطوع و الاعلام و ادار الموارد البشرية في سورية و مصر .



Facebook: Ahmed.Shami.Official Instagram: @AhmadAboShami YouTube: DesignerAhmadShami

التدقيق اللغوي : ولاء السيد شماع
الأداء الصوتي للكاتب : أحمد شامي ، ميرنا محمد
جميع الحقوق الفكرية محفوظة للكاتب ٢٠١٩
#عامان_على_الغربة